

عباس محمود العقاد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإسلام في القرن العشرين

الإســــــلام في القرن العشرين

عباس محمود العقاد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

قـــوه غالبـــة

كان التقليد التاريخى فى القرن السادس للميلاد أن تتقاسم العالم المعمور دولتـان كبيرتان ، كلتاهما حرب للأخرى تنافسها ولا تأمنها ولا تهدأ عن حربها فترة من الزمن الا ريثما تستعد لمعاودة الكرة بقوة الجند والسلاح أعظم من القوة التى جردتها عليها فى حروبها الأولى ·

وكانت الدولتان المتنافستان فى ذلك القرن دولة المشرق وهى دولة الأكاسرة ، ودولة المغرب وهى دولة القياصرة : فارس وبيزنطة ولا ثالثة لهما فى العالم المعمور بين القارات الثلاث ·

جهدت كل من هاتين الدولتين ألا تدع بقعة من البقاع المعمورة فى القارات الثلاث بعيدة من سلطانها أو قادرة على عصيانها ·

وكانت بينهما صـحراء جـرداء تحفل الدولتـان بما حولها ولا تكترثان لمـا يجرى فى داخلهـا ، وامتد سلطان كل منهما الى الجـانب الذى يليه فاتخذت فيه أتبـاعا يطيعونها ويحتمون بها ويلوذون بجوارها : فارس تسيطر على الحيرة واليمن ، وبيزنطـة تسيطر على أرض غسان والبتراء وتهم أن تنصب لها أميرا على الحجاز يدين لها بالولاء ويحرس لها طريق الشام من أوله فى الجزيرة العربية ، ثم لا يعنيها الأمر عناية جد تنتهى فيه الى عمل فاصـل

تجاوز به التردد والشروع ، فليس الأمر من الخطر عندها بحيث تفرغ منه على قرار ٠

أما الخطر الذى فرغت له كلتـــا الدولتين فهو الخطـر من احداهما على الأخـرى ، والخطر من قبـل النهرين فى العراق ومن قبل النهر الكبير فى وادى النيل ٠ فلم تكن بقعة من هذه البقاع قد خلت طويلا من جنود الدولتين منتصرين أو منهزمين ، ولم تزل الحرب بينهما سجالا فى هذه الأودية وما جاورها ، ولم تزل كل منهما على أمان من قبل الجزيرة الجرداء ٠

نعم كان جيش من الفرس قد انهزم فى وقعة ذى قار على طرف من أطراف الجزيرة ، ولكنها هزيمة حرس فى ولاية كما تخيلوها وليست هزيمة دولة تنازل قرنا لها من دولة أخرى جديرة بالخوف منها وحفز الهمم للتغلب عليها ، ومثلها فى عصورنا الحديثة كمثل الهزائم التى أصيبت بها الدولة البريطانية يوم كانت تدعى سيدة البحار أو يوم كان القائلون منها يقولون ان الشمس لا تغيب عن أملاكها : هزائم تارة فى حدود الأفغان أو عند أعالى النيل أو على طرف القارة السوداء فى الجنوب ، ولكنها تنهزم فيها وتبقى بعدها سيدة البحار أو غالبة على كرة الأرض بين مشارقها ومغاربها ٠

وكذلك كانت فارس بعد وقفة ذى قار ، فلم تتبع هزيمتهـا بحذر أو احتراس من تلك الجهة ، وظلت على عهدها من الحذر حيث تخشى الخطر ، فلا ترفع عينها عن بيزنطية وأتباعها فى أودية الأنهار أو بين أرجاء الهلال الخصيب ، ولا تحسب هى ولا صاحبتها بيزنطية أن خطرا عليهما قط متوقعا من جهة الجنوب ٠

فلما جاء كسرى رسول من قبل هذا الجنوب وسأل عن شأن هذا الرسول فقيل له انه نبى فى العرب يدعوه الى دينه ٠٠٠ ضحك

غاضبا أو غضب ضاحكا وأمر من يذهب الى ذلك النبى الجسور فيأتيه به حيا أو ميتا .. ليلقى جزاءه على هذه الجسارة التى اجترأ بها على الشاهنشاه ملك الملوك .

ولما تسامع القوم فى الجزيرة العربية أن ذلك النبى يهم أن يحارب القيصر فى عقر داره سخروا وقالوا فيما بينهم عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية .

لا بل قيل ذلك ، أو شبيه ذلك ، بعد ثلاثة عشر قرنا من القرن السادس الذى استعظموا فيه ما استعظموا من جرأة النبى العربى على عروش الأكاسرة والقياصرة ، فكان من المؤرخين المحدثين من كتب تاريخ الوقائع التى دارت بين أتباع ذلك النبى وبين جبابرة الفرس والروم ، ومن كتب فى تاريخه هزيمة أولئك الجبابرة أمام أولئك الأتباع ، ولكنه حين روى النبأ عن رسل النبى الى كسرى وقيصر رواه وهو يتعجب ويقول شبيها لما قيل يومئذ قبل النصر والهزيمة : عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية ، أو عساه قد زهاه النصر فى مكة والمدينة فلم يدر ما المدائن وما القسطنطينية وراء الرمال والبحار .

ان أعجب العجائب لما ينقضى على وقوعه مئات السنين ثم يتعاظم من يرويه حتى ليوشك أن يرتاب فيه .

وكان ما جرى للدولتين يومئذ أعجب العجائب فى تواريخ الدول من قديم وحديث . فقد هزمت الدولتان معا فى بضع سنوات ، ولم يأت الخطر عليهما من مكان تتوقعان خطره احداهما أو كلتاهما ، بل جاء من المكان الذى هان شأنه حتى لم يحسب له حساب .

جاءت القوة التى هزمت الدولتين فى وقت واحد من وراء

الرمال أو قل من وراء المجهول أو من وراء الغيب ، ولا تعدو الحق فيما تقول ٠

قوة غالبة لم تصمد لها قوة ٠

قوة تجمعت من حيث لا مخافة ولا مظنة ، فما هى تلك القوة ؟ وليست هى قوة دولة ولا قوة سلاح ٠٠ !

قيل فيما قيل انها خشونة البادية غلبت ترف الحضارة ونعمة الرخاء ، ولكن الدولتين اللتين انهزمتا معا قد كانتا تحكمان الملايين ممن لا يعرفون من العيش غير خشونته وشظفه ، وكانت فارس تحكم من حولها قبائل لم تعرف غير الجبال والقتال ، وكانت بيزنطة تحكم على تخومها أشباه تلك القبائل فى خشونتها وقوة مراسها ، وظلت تحكمها وتهزمها كلما أغارت عليها من غربها أو شمالها ، بعد أن تلاحقت هزائما فى وقائعها مع أبناء البادية العربية ، وسلمت بالهزيمة بعد الهزيمة تسليم الخيبة والاضطرار ٠

وقيل فيما قيل انه احتقار العرب للعجم ، وكل الناس عجم عند من ينطقون بالضاد ٠

ولكنه سلاح كان ينبغى أن يصدق من الجانبين ، وأن يغلب به العجم فى بعض ميادينهم ان لم يغلبوا به فى الميادين كافة حيثما التقى الخصمان المتساويان فى ذلك السلاح ، بل لعل العجم كانوا أشد احتقارا للعربى فى تلك الحقبة على التخصيص ، وقد حدث فى احدى وقعات العراق أن زعيما عربيا ممن يلوذون بدولة فارس عرض على مهران قائد الفرس أن يتولى عنه حرب خالد بن الوليد لأن العرب أعلم بقتال العرب ، فغضب جنود مهران لأنهم سمعوه يقول لذلك الزعيم العربى : « صدقت ٠٠ لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا فى قتال العجم » وثاروا به يستعظمون أن يقول « لذلك الكلب » ما قال ، ولم يرضوا عن هذه المجاملة لمن يريد نصره حتى

قال لهم : « دعوني ٠ فاني لم أرد الا ما هو خير لكم وشر لهم ٠٠ فان كانت لهم على خالد فهى لكم ، وان كانت الأخرى لم يبلغكم أعداؤكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء » ٠

ألا أن هذا « الاحتقار » سلاح موفور فى المعسكرين ، فان كان للعرب نصيب كبير منه فما كان عند العجم منه فهو نصيب غير صغير ٠

على أن العرب الذين حاربوا الفرس والروم وانتصروا عليهم لم يكونوا جميعا من أبناء البادية ولا من الناشئين على الشظف والشدة ، بل كان منهم أبناء نعمة وثراء ، وكان قائدهم الأكبر ـ خالد بن الوليد الذى قال الزعيم العربى لقائد الفرس مهران انه أعلم بقتاله ـ مخزوميا من أغنى السروات فى بنى مخزوم ذوى الجاه العريض والثراء المستفيض ، اذ كان جده ـ كما ذكرنا فى سيرته ـ المغيرة بن عبد الله الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسب اليه فيسمى المغيرة تشرفا بالانتساب الى الفرع الذى أناف على الأصول ، وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى ، وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه ، وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه ، له بيت الضيافة يأوى اليه من شاء بغير استئذان ، وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود الى موضعه من الكعبة كما أشار عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية ٠ أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات ، فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول داخل من

باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العـالم بسنين · ولقب أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفي أصحابه في السفر مؤنتهم فلا يتزودون بزاد ···· ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف الى مزاياهم مزية ملحوظة لها شأنها في كل مجتمع انسانى وليس شأنها بالقليل في حياة خالد على التخصيص · فقد كانت هـذه القبيلة على كثرة الأقطـاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هـذه الشهرة الى ما بعد قيـام الدولة العباسية ، اذ كان يقال لأبى العباس السفاح : « ان المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين ·· » ·

فاذا كان المقصـود بترف الروم والفرس ترف الطبقة التي يخرج منها القادة والسادة فليس في قادتهم من أحاطت به نعمة الثراء كما أحاطت بقائد المسلمين الأكبر في حربهم للدولتين ، وهو الذى سماه صاحب الدعوة الاسلامية بسيف الاسلام ·

ولا ننسى أن الجيوش الاسلامية لم تصل الى ميادين العراق وفلسطين حتى كانت قد انتصرت على جيوش عربية من البدو والحضر قد نشأت مثل نشأتها وتدربت على القتال مثل دربتها وعرفت من الترف والخشونة مثل ما عرفته في بداوتها وحضارتها ·

ولا ننسى أن الظاهرة قد تكررت حيث لا عرب ولا روم ، وحيث كان الفرس في صفوف المنتصرين مع أمراء الاسلام · ففي القرن الثاني عشر للميلاد كان السلطان محمد غورى الأفغاني يحارب قبائل « راجبوت » الهندية التي اشتهرت بالشجاعة والفروسية في العالم القديم من أقصى الديار الآسيوية الى أقصـاها ، وكان على رأسهم قائدهم « برتوى » الذى قيل عنه انه لم يعرف الهزيمة قط

فى منازلة قرين ، فانتصر الجيش الأفغانى بمن فيه من الأفغانيين والأتراك والفرس على جيوش الراجبوت بعد حرب زبون كان النصر فيها سجالا بين الفريقين ، وأوشك الأمير الغورى أن يقع فى احدى معاركها أسيرا مثخنا بالجراح فى قبضة عدوه العنيد ٠

وتكررت الظاهرة فى المغرب حيث كان المنهزمون من قبائل البربر التى لم تعرف فى تاريخها القديم غير الخشونة والقتال ، وكان تكرارها فى مواطن شتى دليلا على أن القوة التى انتصر بها دعاة الاسلام لم تنبعث فيهم من خشونة البادية العربية ولا من هوان شأن العجم على العرب ، ولا حاجة الى قول قائل انها لم تنبعث من بأس الملك ولا من عدة السلاح ٠

فلا مناص اذن من الرجوع بها الى السبب الذى اتفق عليه المؤرخون أو كادوا بعد التعلل لها بجميع الأسباب ٠

لا مناص اذن من الرجوع بها الى العقيدة التى حفزت أولئك المجاهدين على اختلاف الأقوام والأزمان ٠

غير أن الرجوع بها الى العقيدة لا يختم المطاف ولا يغنى عن مزية فى هذه العقيدة تمتاز بها بين العقائد الكثيرة التى سبقتها أو لحقت بها ولم تنبعث منها قوة كهذه القوة ولا ظاهرة كهذه الظاهرة بعد تجريدها من العوامل الأخرى ٠

فما كانت جيوش الروم ولا جيوش الفرس خلوا من عقيدة يؤمنون بها ويقبلون على الموت فى سبيلها ، وما كانت قبائل الهند أو آسيا الوسطى تجهل الدين أو تهمله فى معيشتها اليومية فضلا عن المراسم التى تصحب المتدين من مولده ولا تفارقه مدى الحياة ٠

أيقال انها دفعة الدين الجديد ميزت عقيدة الاسلام على سائر العقائد فى ذلك التنازع بين الدول والأديان ؟

ان دفعة الدين الجديد ولا شك سبب لا يهمل فى هذا المقام ، وقد يسبق الى الخاطر لتفسير قوة الدعوة فى القرن السابع للميلاد وفى القرن الثانى عشر يوم كان القائمون بالدعوة فى آسيا الوسطى أقواما من الأفغان والترك دخلوا حديثا فى الدين ·

لكن كم من عقيـدة جديدة صنعت مثل هذا الصنيع ؟ وكم ظاهرة كهذه الظاهرة تكررت فى تواريخ الدول والأديان ؟

وقـوة صـامدة ٠٠ !

ان العقيدة الاسـلامية لم تكن قوة غالبة وحسب فى ابان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ، ولابد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لابد من تفسير لتلك القوة الغالبة ٠ فان القوة التى تصمد كالقوة التى تغلب فى حاجتهما الى التفسير ، أو لعل القوة التى تصمد أولى بالتفسير من القوة الغالبة ، لأنها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة فى معترك الصدام والصراع ٠

وصمود القوة الاسلامية فى أحوال الضعف عجيب كانتصارها فى أحوال الشدة والسطوة ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قـرون ٠

ولقد تداولت الدول بقاع الأرض من القرن السابع للميلاد الى العشرين : قامت دول اسلامية ثم انهارت أمام المنافسين من أبناء دينها أو أبناء الأديان الأخرى ، وحدث فى فترة من الزمن خروج المسلمين مس أوربا الغربية ودخولهم الى أوربا الشرقية ، ودالت دولة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وقامت دولة الآستانة أو اسلامبول، ثم ظلت هـذه الدولة وحـدها كفؤا للدول الأوربية مجتمعات أو متفرقات حتى تداعت أركانها وتصدع بنيانها وبقيت قائمة لاختلاف الطامعين فى ميراثها على تقسيمها ، وتلاحقت الضربات على البلاد

الاسلامية بين هزيمة واضطهاد وتمزيق وتفريق حتى تمكن منهـا المستعمرون فلم تبق منهـا واحـدة تنعم بقسط من حرية الحـكم وسـيادة الاستقلال ، ومن كان منها مستقلا كالدولة العثمانية أو الدولة الايرانية أو الدولة الحسينية بالمغرب الأقصى كان افتيات المستعمرين على حقوقها أشد وأقسى من افتياتهم على البلاد التى فقدت حـريتها واسـتقلالها ، وانقضى القرن التـاسع عشر كله والأمم الاسلامية مخذولة متخاذلة والدول المستعمرة غالبة متحكمة ، وخيل الى الناظرين أن الحاضر والمستقبل جميعا للاستعمار ، وأنه قد جمع القوة والعلم والحضارة فلا نجاة من قبضته للذين حرموا القوة والعلم والحضارة وأصبحوا فى كل منها عالة على المستعمرين ٠٠

ثم انتهى القرن التاسع عشر فكيف رأى الناس منتهاه ؟

الاستعمار يتراجع ولا يظفر بغنـــاء من سلطان المال والعلم والسلاح ٠

والاسلام تبرز له دولتان فى آسيا عدد المسلمين فى كل منهما يزيد على سبعين مليونا ، وهما دولتا أندونيسيا والباكستان ٠٠ وسائر الدول فى آسيا وافريقيا تقترب من الحرية وتبتعد من ربقة العبودية ، وهذه هى قوة الصمود بعد أربعة عشر قرنا من الدعوة المحمدية ، لا ينظر المؤرخ فى أطوارها على تعدد ظواهرها وأدوارها الا وجب عليه أن يفترض لها سرا عجيبا كذلك السر العجيب فى صدر الاسلام : سر الغلبة من حيث لا تنتظر الغلبة على دولتى العالم فى مدى خمس سنوات ٠

ان قوة الصمود هنا لعجيبة كقوة الغلبة هناك ، ولعلها ــ كما قدمنا ــ أعجب من قوة الغلبة ، لأنها تملك الدفاع النافع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، لا بل تملك الدفاع ولا اتفاق بينها على الدفاع ٠

وندع الصراع فى مجال الدول المتداولة بين السطوة والخضوع وبين النصر والهزيمه ، فان قوة العقيدة الاسلامية قد سرت مسراها فى أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفى افريقيا اليوم مائة مليون مسلم لا شأن فى اسلامهم لدولة أو سياسة ، وقريب من هذا العدد مسلمون فى السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه فى الباكستان ، وقد يكون فى الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين .

وهؤلاء جميعا سرت فيهم عقيدة الاســلام بمعزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، أو كان للدول والسياسات شأن فى اســلامهم من بعيــد متقطع غير موصــول ولا مقصود ، ولعله لو انحصر الأمر فيه لا يكفى لاسلام عدة من الناس تحسب بالألوف ، ولا ترتفع الى عشرات الملايين فضلا عن مئات الملايين ، ولو حسب جهاد المجاهدين فى سبيل اسلامهم بعدد الرؤوس التى سقطت فى ميدان القتال ، لكان الرأس الواحد هنا عدلا فى كفة الميزان الأخرى لمئات الألوف .

هذه القوة ، غالبة وصامدة ، تتطلب تفسيرا غير كلمة العقيدة مجردة من خواصها ومزاياها ، ولا غنى لها عن مزية تهيأت لها ولم تتهيأ للعقائد الأخرى التى لم يعرف عنها مثل هذه الغلبة ومثل هذا الصمود ، وتلك حقيقة فطن لها الباحثون فى انتشار الاسلام من أصدقائه وأعدائه على السواء ، فذهبوا جميعا يلتمسون الدواعى التى يسرت لهــذه الدعوة ما لم يتيسر لغيرها ، وهم متفقون على انفرادها بالمزية الخاصة مختلفون فى بيان تلك المزية على حسب اختلاف النية واختلاف الرغبة فى الحمد أو المذمة ، ومنهم مبشرون يلجأون الى المزايا التى تعينهم على الاعتذار كلما وضح عجزهم عن تحــويل المسلمين من دينهم أو وضــح عجزهم عن مجاراة الدعاة

الاسلاميين وفى نشر دينهم بغير مشقة وبغير كلفة من المال والعتاد ووسائل التدريب والتنظيم ·

فمن أسباب انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ــ عند فريق من هؤلاء الباحثين أو المبشرين ــ أنه لا يمنع تعدد الزوجات ولا يحول بين الرجل الافريقى وطلاق زوجاته أو الاحتفاظ بما شاء منهن كما يشاء ·

ومن أسباب انتشاره عند الباحثين فى سرعة الاقبال عليه بين الهنود أنه سوى بين الطوائف المنبوذة وغيرها من طوائف السادة والأشراف ، فأقبل المنبوذون عليه زرافات وبلغوا به من المكانة الاجتماعية ما لم يكونوا بالغيه بالعقيدة المفرقة بين الطوائف والطبقات ·

ومن هذه الأسباب عند الباحثين فى سرعة انتشاره بين الأندلسيين أنه صادف ثمة شعبا فقيرا ساءت ظنونه بساداته من رجال الدنيا والدين وأنكروا من أولئك السادات الدنيويين والدينيين تعاليا عليهم واشتغالا عنهم بلذتهم وأبهتهم ، فرحبوا بأصحاب الدين الجديد ودخلوا فى ملتهم لأنها ملة لا تفرق بين السادة والعبيد ·

ومن هذه الأسباب أنه دين بسيط سهل القواعد والأصول لا يحوج المتدين به بعد الايمان بالوحدانية وفرائض العبادة الى شيء من الغوامض والمراسم التى يدين بها أتباع العقائد الأخرى ولا يفقهون ما فحواها ·

وهذه كلها ــ على أصح ما تكون ــ أسباب محلية أو أسباب موقوفة تصلح لتعليل انتشار الدين فى بيئة معينة أو فى زمن معين. ولكنها لا تلازم انتشاره فى جميع البيئات والأزمان ، ومشكوك مع هذا فى صدق تعليل بعضها فى البيئة الواحدة كما قيل عن تعليل

شيوع الاسلام بين الافريقيين وقلة اقبالهم على العقائد التى تحرم تعدد الزوجات ٠

فليس تعدد الزوجات من اليسر بحيث يقدر عليه كل من أراده بين أولئك الافريقيين ، ومن كان منهم قادرا على تعديد زوجاته وسراريه فهو يعددهن حتى الساعة كائنا ما كان اعتقاده أو كائنا ما كان دينه بين الأديان الكتابية ، وسائر القوم من غير ذوى القدرة على الجمع بين الزوجات الكثيرات قلما يعنيه السماح له بزوجة أو أكثر من زوجة ، وقلما يوجد فى بيئته سجل يحصى عليه عقود الزواج والطلاق ، وقد أجمع الرحالون على صعوبة الاستعداد للزواج وتدبير المهر المطلوب بين قبائل افريقيا الوسطى ، فلا يتأهل الشباب للبناء بالزوجة الواحدة الا أن يكون ذا مال يحسب بما عنده من رءوس الماشية والأنعام ، ومن المستغرب حقا أن يتخيل المرء افريقيا يدخل فى الدين ثم يخرج منه لأنه حال بينه وبين البناء بزوجة جديدة غير التى ارتبط بها بعقد من العقود على أيدى رجال الدين ، وأغرب من ذلك أن نتخيل الافريقى الأعزب منتظرا متسائلا لا يدخل فى الدين حتى يتبين ما يبيحه له أو يحرمه عليه من روابط الزواج ٠

وأيا كان أثر العلاقات الزوجية فى انتشار الاسلام بين الافريقيين فمن المحقق أن هذه المسألة خاصة لم يكن لها شأن فى منافسة الأديان الأخرى قبل القرن السادس عشر للميلاد ، فان تحريم تعدد الزوجات لم يرد فى كتاب من كتب العهد القديم أو كتب العهد الجديد ، وكل ما ورد فى الانجيل أن القس ينبغى ألا يزيد على زوجة واحدة ان لم يكن بد من الزواج ، وقد جمع شارلمان فى القرن التاسع بين زوجتين وزاد عدد زوجاته على خمس كلهن بقيد الحياة غير من فى القصر من السرارى والزوجات « غير الشرعيات » ٠٠ واعترف قبل مماته بعشرة من أبناء هؤلاء عدا الثمانية الذين ولدوا

له من زوجاته دسدراتا وهولجارد وفسترادا (١) وعدا الأبناء الذين ولدوا له ولم يعترف بهم لأنهم كانوا على غير ما يجب من سمات الأمراء .

ومن الأوهام الشائعة كما قلنا في كتابنا عن الفلسفة القرآنية « ان الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد الزوجات بين الأديان الكتابية ... » لأن الواقع الذى تدل عليه كتب الاسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان عملا مشروعا عند أنبياء بنى اسرائيل وملوكهم فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى فى حرم واحد ، وروى وستر مارك Westermarck

العالم الحجة فى شئون الزواج على اختلاف النظم الانسانية أن الكنيسة والدولة معا كانتا تقران تعدد الزوجات الى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر فى الحالات التى لا تعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج الأسرة الكبيرة ، وكل ما حدث فى القرن الأول للمسيحية أن الآباء كانوا يستحسنون من رجل الدين أن يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بتة ، فكانت الفكرة التي ذهبت الى استحسان الزواج الموحد هى فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فان لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شرا من امرأتين ، وكانت المرأة على الاطلاق شرا محضا وحبالة من حبالات الشيطان ، بل أخطر هذه الحبالات ، واستكثر أناس من آباء الكنيسة وفقائها أن تكون لها روح علوية ، فبحثوا فى ذلك وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذى لا حياة له بعد فناء جسده ... » .

---

(١) Desiderata, Hildegarde, Fastrada.

ومن الواضح أ نهذه المسألة بذاتها ــ مسألة الزواج والمرأة ــ لم تكن من المسائل التي تسبق الدخول في دين من الأديان ، وما من أحد في افريقيا وفي سائر القارات رأى المسلمين منفردين بإباحة الجمع بين النساء في البيت الواحد ، وما من وثني على الفطرة أباح له الاسلام كل ما كان يستبيحه من الشهوات على دين آبائه ، وأولها المسكرات التي تفشو بين البدائيين ويضيقون بمنعها أشد من ضيقهم بمنع تعدد الزوجات ، وما من عقبة قامت في وجه المسيحية بين الشرقيين أو الغربيين لأنها كانت تحض على الرهبانية أو تنظر الى المرأة نظرتها الى شيطان أو حبالة شيطان ٠ فاذا آمن المرء بفساد عقيدة آبائه وأجداده فلا مناص له من قبول الدين الذي كشف له ذلك الفساد ثم يعالج بعد ذلك طاقته على احتمال أوامره ونواهيه ، ولا يرفض الأوامر لأنه يعصيها أو النواهي لأنه يقدر على اقترافها ، بل يحاول أن يكف عن المعاصي والذنوب ويرتقي في الدين فوق مرتقاه ٠

ولو كان الاقناع المنطقي يكفي وحده لتعليل الظواهر الاجتماعية أو التاريخية لصح أن يقال أن الاسلام قد شاع بين طوائف المنبوذين في الهند لأنه يرفع عنهم لعنة المذلة والحرمان ٠ فهم خلقاء أن يوازنوا بين منزلتهم في دين آبائهم وأجدادهم ومنزلتهم في الدين الاسلامي فيختاروا أفضل المنزلتين ، وقد وازنوا واختاروا فدخلوا أفواجا في الدين الجديد ٠

غير أن الاقناع المنطقي لا يكفي وحده لتعليل ظواهر الاجتماع وظواهر التاريخ فيما له اتصال بأطوار السرائر على الخصوص ، أو لعل الاقناع المنطقي يكفي المؤرخ في تعليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية اذا اعتمد عليه في كتابة التاريخ ولم يجعل الناس جميعا معتمدين عليه في أعمالهم منقادين له في أحاسيسهم ودخائل وجدانهم ٠ فمن المنطق الصحيح أن يرجع المؤرخ بالحوادث الى

الأسباب الثابتة والعوامل المقنعة ، وليس من المنطق الصحيح أن نتخيل الناس جميعا منطقيين حين يؤمنون أو حين يكفرون ، ومنطقيين في تمييز الحق والباطل من الدواعي والأسباب .

والواقع في أمر المنبوذين الهنديين ، وفي أمر المحرومين جميعا، أنهم لم يكونوا أضعف ايمانا بعقيدتهم البوهيمية من أبناء الطبقات العليا ، ولم يثبت قط أن التحول الى الأديان الأخرى كان بينهم أكثر وأسرع بما كان بين الطبقات العليا ، وربما وجد فيهم من يصبر على قسمته لأنه يعتقد أنها شرط من شروط الخلاص الأبدى وكفارة عن المساوىء التى سلفت منه فى أدوار الخلق الأولى ، وربما كان من المحرومين في كل أمة من هو أثبت ايمانا على دينه من ذوى النعمة والثراء ، لأن جانب الوعد والأمل قوى فى الدين ، ونصيب المحروم من الوعد والأمل أوفر من نصيب القانع المحدود .

وقد حدث حقا أن أناسا من المنبوذين رحبوا بالدين الاسلامى ودخلوا فيه لارتياح نفوسهم اليه ولحسن ما عاينوه من القدوة الصالحة فى سيرة المسلمين الوافدين على بلادهم والمقيمين بين ظهرانيهم ، ولكننا لا نجد من أسانيد التاريخ ولا من أسانيد العقل ما يفهم منه أن الهنود الذين أسلموا كانوا جميعا من طوائف المنبوذين ، بل لا نجد فى تلك الأسانيد ما يفهم منه أن الأكثرين كانوا منهم ولم يكونوا من الطبقات العلية وذوى الوجاهة فى المجتمع أو فى الدولة الحاكمة ، وقد تحول الهنود الى الاسلام فى بقاع الهند الغربية من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حيث يوجد المنبوذون وحيث لا يوجدون ، وتحول أهل سومطرة وجاوة الى الاسلام بهذه الكثرة أو بأكثر منها وهم بوذيون يقل بينهم المنبوذون، وتكاد الروايات المحفوظة عن أخبار الاسلام فى الجزر الجاوية أن تجمع على ابتداء الاسلام بين الأمراء والقادة ثم شيوعه بأمرهم وهدايتهم بين رعاياهم الوثنيين ، ولعلها هى القاعدة المطردة فى معظم

الأمم الآسيوية من سكان الجزر الى سكان القارة الوسطى سواء من كان على الوثنية أو من دان فى صباه ببعض الأديان الكتابية كما حدث فى اسلام « تكودار خان » أحد سلاطين المغول بأرض فارس ، وهو الذى نقل لنـــا القلقشندى فى صبح الأعشى كتابا منه الى السلطان قلاوون بمصر يقول فيه :

« ... ان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشـــدنا فى عنفوان الصبا وريعــان الحداثة الى الاقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمـد عليه أفضـل الصلاة والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره بالاسلام.. » .

وقد أسلم على هذا النحو بعض زعماء القبائل الأثيوبية ، فلم ينحصر اقبال الآسيويين والافريقيين على الاسلام فى طبقة واحدة من الرعية أو الرعاة ، وابتدأ التحول من العلية الى من دونها كما ابتدأ من الأتباع الى السادة والرؤساء .

ومهما يكن من أثر الأسباب المحلية أو الموقوتة فلابد من البحث عن سبب عام محيط بجميع هذه الأسباب التى تختلف فيها بيئة عن بيئة وزمن عن زمن وحالة عن حالة ، ولابد من عامل واحد غير هذه العوامل التى تحبب الاسلام تارة الى الحاكم وتارة الى المحكوم وتفتح له السرائر فى نفوس الضعفاء وفى نفوس الأقوياء ، وتجعله قوة تعين الغالبين عـلى الغلب وتعين المغلوبين عـلى الصمود والدفاع ، ولا تخفى حقيقة هذا العامل بعد هذا الشمول ، فان حقيقته التى تتضح من احاطته بهذه العوامل كافة أنه عقيدة شاملة ، وأنه بذلك حقق الصفة الكبرى للعقيدة الدينية على أتم شروطها ، فما كانت سريرة الانسان لتطمئن كل الاطمئنان الى اعتقاد يفرقها بددا ويقسمها على نفسها ويترك منها جزءا لم تشمله بقوته ويقينه ، وقد يخرج من سلطانه فيملكه سواه .

قلنا فی ختام کتابنا عن عقائد المفکرين انه « لا التباس اليوم بين وازع الأخلاق ووازع العقيـدة الدينية ، وليس اتفاقهما فی الاباحة والتحريم أحيانا بالذی يمنع الباحث أن يعرف لها صبغتها ويميز طبيعتها ، فلا يخلط بين أوامر القانون وأوامـر الأخـــلاق وأوامر الدين ٠

« والغالب علی الأوامر القانونية أنها ارادية تكتفی بتحقيق السلامة ولا تذهب وراء الأسلم الألزم الی شوط بعيد ، والغالب علی الأوامر الأخلاقية أنهـا لدنية تعمل فيها الارادة شيئا ولكنهـا لا تعمــل كل شیء ، بل يتـولی الشعور أهم البواعث فی أعمـال الأخلاق ، ويشـاهد فيها كثـيرا نزوع الی ما وراء السلام واللزوم وتفضيل للأجمل الأمثــل من الأمور ، فصاحب الوازع الأخـلاقی لا يقنع بفروض القانون ولا يزال متطلعا الی درجة أعلی من درجات القانعين باجتناب العقاب والتزام أدنی الحدود ٠

« أما الغالب علی الأوامر الدينية أو آداب العقيدة فهو الشمول الذی يحيط بالارادة والشعور الظاهر والباطن ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه ، ولا يقنع بالسلامة أو بالجمال الا أن تكون معهما الثقـة التی لا تتزعزع فی صميم الحيـاة ، بل فی صميم الوجود ، ومن السهل أن يقال ان حاسة القانون تتولد فی الانسان لأنه عضو فی مجتمع وان حاسـة الأخلاق تتولد فيه لأنه فرد من أفراد هذا النوع الانسانی كله ، ولكن ليس من السهل أن يقال ان الانسان مهتم بمصيره فی الكون لأنه عضو فی المجتمع أو فرد من أفراد النوع ٠٠٠٠ وانما يتدين الانسان لأنه يهتم بمصيره ومعنی وجوده ويطلب له قرارا أوسع جدا من علاقاته الانسانية أو علاقاته بالمجتمع ، ويجب أن يطلب عقيـدة تحتـويه ولا يكتفی بعقيـدة يحتويها ويريدها كما يشاء » ٠

وعلى هذا الشرط ـ شرط الشمول فى العقيدة ـ يكون الاسلام هو العقيـدة بين العقائد ، أو هو العقيـدة المثلى للانسان منفردا ومجتمعا ، وعاملا لروحـه أو عاملا لجسـده ، وناظرا الى دنياه أو ناظرا الى آخرته ، ومسالما أو محاربا ، ومعطيا حق نفسه أو معطيا حق حاكمه وحـكومته ، فلا يكون مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد أو لأنه جسد ينكر الروح أو لأنه يصحب اسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى ، رهينا بوساطة بينه وبين السماء يتولاها فى المعابد سدنة موكولة بالوساطة بين المخلوق والخالق وبين العابد والمعبود ، ولكنهما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه فى جميع حالاته وجميع حالاتها ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع .

ان شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة فى العقيدة الاسلامية ، وهو المزية التى توحى الى الانسان أنه « كل » شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق .

عقيـدة شـاملة

يبدو الى الذهن أن الشمول الذى امتازت به العقيدة الاسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولابد لاظهارها من بحث عويص فى قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هى مما يراه الناظر الوثنى أو الناظر البدوى لأول وهلة قبل أن يطلع على حقائق الديانة ويتعمق فى الاطلاع ·

ومن المحقق أن ادراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة فى وجـوه الاتفاق ووجـوه الاختـلاف بين الديانات ، وبخاصـة فى شعائرها ومراسمها التى يتلاقى عليها المؤمنون فى بيئاتهم الاجتماعية ·

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الاسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشته وعبادته ، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا بعبادته عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن ليعلم أنه وحدة كاملة فى دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبـه فى ذلك الدين أيـام كان الدين كله حكرا للكاهن ووقفا على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة ·

لقد ظهر الاسـلام فى ابان دولة الكهانة والمراسـم ، وواجه أناسا من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود الى حالة كحالة الوثنية فى تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة ، ولاح

للناس في القرن السابع للميلاد خاصة أن « المتدين » قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لهـا ديانة أو شـفاعة بمعزل عنه ، فالدين كله فى المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعا قطع متفرقةلا تستقل يومـا بقوام الحياة الروحيـة ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب الى المعبد لتتزود منه شيئا تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة ٠

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والأيقونة ، سواء فى العبادة الوثنية أو فى عبادة أهل الكتاب الى ما بعد القرن السابع بأجيال متطاولة ٠

فلما ظهر المسلم في تلك الآونة ظهر الشمول فى عقيدته من نظرة واحدة ، ظهر أنه وحدة كاملة فى أمر دينه يصلى حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد من الكهان ، وهو مع الله فى كل مكان ، وأينما تولوا فثم وجه الله ٠

ويذهب المسلم الى الحج فلا يذهب اليه ليستتم من أحد بركة أو نعمة يضفيها عليه ، ولكنه يذهب اليه كما يذهب الألوف من اخوانه ٠ ويشتركون جميعا فى شعائره على سنة المساواة ، بغير حاجة الى الكهانة والكهان ، وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين للكعبة خداما لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم ان شاء فلا سبيل لأحد منهم عليه ٠

فاذا توسـع قليلا فى العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرســول ، وأن هذه الرســالة ليست من مناسك الدين ، وأنها تحية منه يؤيها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه ٠

واذا توسع قليلا فى مكان ذلك الرسول من الدين قرأ فى القرآن الكريم :

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى .. » .

وقــرأ فيـــه :

« فان اعرضـــوا فما أرســلناك عليهــم حفيظــا ، ان عليك الا البلاغ » .

وقــرأ فيـــه :

« قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين » .

وقــرأ فيـــه :

« وما أنت عليهم بجبار » .

وقــرأ فيـــه :

« لست عليهم بمسيطر » .

وقــرأ فيـــه :

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

وقرأ فيه آيات لا تخرج فى وصف الرسالة عن معنى هــذه الآيات .



مر بنا أن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجا فى عقيدة المسلمين ·

مثل هذا لا يحصل فى أمة اسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب الى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك اليك فاننى لا أومن به لاننى لا أومن بك ولا أرى فى سيرتك مصـدقا لأوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه ··

كلا ·· ما من رجل دين يبدو للمسلم أنه صاحب الدين وأنه حين يؤمن به لأنه اله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبينه أو يعطيه من نعمته قواما لروحه ·

« ··· والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير · ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير · يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد » ·

نعـم ، كلهم فقراء الى الله ، وكهلم لا فضل لواحد منهم على سائرهم الا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء · فان لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء ·

ان عقيدة المسلم شيء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره ، ومن كان اماما له فى مسجده فان ترتفع به الامامة مقاما فوق مقام النبى صاحب الرسالة : النبى الذى يبشر وينـذر ، ولا يتجبـر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل وعليهم ما حملوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين ·

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاسلام شأنه الذى لا يعرف لأحد حقا فيه أعظم من حقه أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو مكانا يأوى اليه ولا يكون الاسلام فى غيره ·

كذلك لا ينقسم المسلمين قسمين بين الدنيا والآخرة.، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ويحفزها فى الواقع الى طلب العقيدة ولا يكون هو فى ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخـــرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ·

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا · ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ·

فاذا كانت العقيدة التى تباعد المسافة بين الروح والجســد تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل ـ فالعقيدة التى توحد الانسان وتجعله كلا مستقلا بدنياه وآخرته شفاء له من ذلك الفصام الذى لا تستريح اليه السريرة الا حين تضطر الى الهرب من عمل الانسان الكامل فى حياته ، وحافز له الى الخلاص من القهر كلما غلب على أمره ووقع فى قبضة سلطان غير ربه ودينه ·

ومن هنـــا لم يذهب الاســـلام مــذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر · لأن الأمر فى الاسلام كله لله «بل لله الأمر جميعا» ··· « ولله المشرق والمغرب » ··· « رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون » ·

وانما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التى لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر لأمر الله · وهذا التطويع هو الذى أوجبته العقيدة الشاملة وكان له الفضل فى صمود الأمم الاسلامية لسطوة الاستعمار وايمانها الراسخ بأنها دولة دائلة وحالة لابد لها من تحويل ·

وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنها فى الزواج لصاحبها وتنأى عنه بروحها وسريرتها ، وأبت على الانسان جملة أن يستريح الى « الفصام الوجدانى » يحسبه حلا لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام ٠

ان هذا الشأن العظيم ـ شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم « وحدة كاملة » ـ لا يتجلى واضحا قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الاسلامية ٠ فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الافريقية على يدى تاجر فرد أو صاحب طريقة متفرد فى خلوته لا يعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الاسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليونا بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الأبيض والأحمر ٠ فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم كل من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى افريقيا وشواطئها الا القليل الذى لا يزيد فى بداءته على عشرات الألوف ٠

★★★

وينبغى أن نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وانكار حقوق الروح ٠ فان الاعتراف بحقوق للجسد لا يستلزم انكار الروحانية ولا الحد من سبحاتها التى اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » فى اللغات الغربية Mysticism

اذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح ، وقد أشاهر القرآن الكريم الى الفارق

بين عالم الظاهر وعالم البـــاطن فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات ما كانت له حياة ناطقة وما لم تكون له حياة « وان من شيء الا يسبح بحمـــده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . وأشار الى هذه الأشياء بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون أن الله أقرب اليهم من حبل الوريد وأنه نور السموات والأرض وأنه « هو الأول والآخــر والظـاهر والبـاطن وهو بكل شيء عليم » .

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل ما يستباح فى عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد فى أهل دين من الأديان طرق للتصوف تبلغ ما بلغته هذه الطـرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجـه للمقابلة بين الاسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلا فى العقائد الصوفية . فان انكار الجسد فى البرهمية أو البوذية يخرجهما من عداد العقائد الشاملة التى يتقبلها الانســـان بجملتــه غير منقطع عن جسده أو عن دنياه .

وحسب المرء أن يرضى مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام .

كذلك يخاطب الاسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير او الوجدان ، وفى حكمــه أن النظـر بالعقــل هو طريق الضمير الى الحقيقة ، وأن التفكير بـاب من أبـواب الهداية التى يتحقق بهـا الايمان : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » ... « كذلك يبين الله لكل الآيات لعلكم تتفكرون » ... وما كان الشمول فى العقيدة ليذهب فيها مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الانسان روحا وجسدا وعقلا وضميرا بغير بخس ولا افراط فى ملكة من هذه الملكات .

وفى مشكلة المشكلات التى تعرض للمتدين يعتدل المسلم بين الايمان بالقدر والايمان بالتبعة والحرية الانسانية ، فمن عقائد دينه « أن أجل الله اذا جاء لا يؤخر » ··· « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب » ··· وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله » ··· « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » ·

ومن عقائد دينه أيضا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ··· « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ··· « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ·

وليس فى الاسلام أن الخطيئة موروثة فى الانسان قبل ولادته ، ولا انه يحتاج فى التوبة عنها الى كفارة من غيره · وقد قيل ان الايمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على نقيض ذلك أنه كان حافزهم الأول فى صدر الاسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الأمر أن المسلم الذى يترك العمل بحجة الاتكال على الله يخالف الله ورسوله لأنه مأمور بأن يعمل فى آيات الكتاب وأحاديث الرسول · « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ··· بل حقيقة الأمر أن خلاصه كله موقوف عليه ، وأن ايمانه بحريته وتدبيره لا يقتضى بداهة أن الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير ·

وأصدق ما يقال فى عقيدة القضاء والقدر أنها قوة للقوى وعذر للضعيف ، وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهابه ولا يقدر عليه ، وذلك ديدن الانسان فى كل باعث وفى كل تعلة كما أوضحنا فى الفارق بين أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى وهما يقولان بقول واحد فى عبث الجهد وعبث الحياة ·

فأبو الطيب يقول عن مراد النفوس :

ومراد النفوس أهون من أن   نتعادى فيه وأن نتفانى

ثم يتخذ من ذلك باعثا للجهاد والكفاح فيقول :

غير أن الفتى يلاقى المنـايا كالحـات ولايلاقى الهـوانا

والمعرى يقول ان التعب عبث لأنه لا يؤدى بعده الى راحة فى الحياة ، ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد :

تعب كلها الحيـا فما أعجـ ـب الا من راغب فى ازدياد

وعلى هذا المثـال يقال تارة ان عقيدة القضـاء والقدر نفعت المسلمين ويقـال تارة أخـرى أنها ضرتهم وأوكلتهم الى التواكل والجمود ، وصواب القول أنهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف .

وتوصف العقيـدة الاسـلامية بالشمول لانهـا تشـمل الأمم الانسـانية جميعا كمـا تشمل النفس الانسـانية بجملتها من عقل وروح وضمير .

فليس الاسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ، ولكنه رسالة تشمل بنى الانسان من كل جنس وملة وقبيل : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ... « قل يا أيهـا الناس انى رسـول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض » ... « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ... « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فهذه عقيدة انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الأمم لأنهــا من ســلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصـــلاح : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » .

وفي أحاديث النبي عليه السلام أنه « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشي على حبشى الا بالتقوى » .

وليس للاسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالنـــاس درجات يتفاوتون بالعـــلم ويتفاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالأخلاق .

★★★

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » .

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » .

★★★

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

★★★

واذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لأن الضعف نعمــة أو فضيلة مختــارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف انه أهل لمعرفة الله اذا جاهد صبر وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين، والا فانه لمن المجرمين .



« يقول الذين استضعفوا للذين اسـتكبروا لولا أنتم لكنـا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى اذ جاءكم · بل كنتم مجرمين » ·

★★★

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمـكن لهم فى الأرض ونرى فرعـون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ·

★★★

وما من ضعيف هو ضعيف اذا صبر على البلاء ، فاذا عرف الصبر عليه فانه لأقوى من العصبة الأشداء ·

الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين » ·

فما كان الاله الذى يدين به المسلم اله ضعفاء أو اله أقوياء ، ولكنه اله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أنه يكون مع الله ، والله مع الصابرين ·

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الأرض ثم صمدوا لغلبة الاقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين ·

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الاسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الأديان الكتابية ، فان تاريخ التحول الى هـذه

الأديان لم يسجل لنا قط تحولا اجماعيا اليها من دين كتابى آخر بمحض الرضى والاقتناع ، اذ كان المتحولون الى المسيحية او الى اليهودية قبلها فى أول نشأتها أمما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف من قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الاله الخالق المحيط بكل شيء ، ولم يحدث قط فى أمة من الأمم ذات الحضـــارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول الى دين كتابى غير الاسلام ، وانما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقـائد الكتابية ، فتحولت اليه الشعوب فيما بين النهرين وفى أرض الهلال الخصيب وفى مصر وفارس ، وهى أمة عريقة فى الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول اليه أناس من أهل الأندلس وصقلية كما تحول اليه أناس من أهل النوبة الذين غبروا على المسيحية أكثر من مائتى ســنة . ورغبهم جميعا فيه ذلك الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بنى الانسان على تعدد الأقوام والأوطان ، أو ويحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع .

وابراز هذه المزية ــ مزية العقيدة الاسلامية التى أعانت أصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود ــ هو الذى نستعين به على النظــر فى مصير الاسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما حالة القوى الغالب وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة الصمود ، للأقوياء الى أن يحين الحين ويتبدل من حالتى الغالب والمغلوب حالته التى يرجوها لغده المأمول . ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين فى مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الانسانيـــة فى جملتها وللعالم الانسانى فى جملته ، ليكونن المصير فى الغد المأمول أكرم ما يكون مع هذه القوة وهذا الشمول .

* * *

الاسلام والمسلمون
فى القرن التاسع عشر

١ ــ الاسلام

انتهى الاسلام فى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد الى نهاية جزره من القوة النفسية والقوة المادية ٠ لأنه تلقى عن القرون الأربعة السابقة أثقالا من المتاعب والأدواء لم تمتحن أمة من قبله بمثلها ، وكان بعضها كافيا للقضاء على دولة الرومان الشرقية ودولتهم الغربية ، وبعضها كافيا للقضاء على دول الفراعنة والأكاسرة فى الزمن القديم ، وان فى هذا الميدان من ميادين المقارنة التاريخية لفارقا يبدو لنا فى كثير من الصور بين عظمة الدين وعظمة السياسة ، فان دول السياسة تذهب ولا تعود ولا يوجد بعدها من يحاول اعادتها ، ولكن دولة الدين ــ أو على الأصح قوة الدين ــ تبقى من وراء الأمم والحكومات كأنها القوام الذى تتعاقب عليه بنية فى أثر بنية ، وهو باق يتجدد ولا يستسلم للفناء ٠

ولا نعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الاسلام بعد ما تلقاه من الضربات منذ القرن العاشر الى القرن التاسع عشر للميلاد ٠ وانما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعة التى صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون ، ولم يزل بعدها « وحدة انسانية »

هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الأمم ولا تزال على أمل وثيق فى المزيد

ونستطيع أن نتخيل تلك القوة المنيعة بنظرة سريعة نعرض فيها طائفة من الكوارث والشدائد التى صابرتها وصبرت عليها وهى محيطة بها من خارجها وناجمة فيها من داخلها وبين ظهرانيها ٠

فقد مضت القرون الأربعة بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر فى منازلة الجيوش الصليبية ، ولم تكد هذه الحروب تنتهى حتى خلفتها حروب « المسألة الشرقية » وهى التى وقفت فيها الدولة العثمانية ــ وكانت يومئذ دولة الخلافة تناهض غارة بعد غارة من غارات الدول الأوربية التى تألبت عليها وأطلقت عليها اسم « الرجل المريض » لأنها ٠٠ كانت تتنازع ميراثه وهو بقيد الحياة ٠

ولم تكد حروب المسألة الشرقية تنتهى بتنافس « الورثة » على بقية الميراث حتى أعقبتها حملات الشركات وأصحاب الديون ومعها حملات الاستعمار والتبشير ٠

وقبل الحروب الصليبية وبعدها كان العالم الاسلامى عرضة لأهول الغارات من قبل آسيا الوسطى التى كانت ترسل الفوج بعد الفوج من عشائر التتر والمغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو وغازان وتيمورلنك وأتباعهم من القادة والأمراء وهم لايفهمون معنى الغلبة الا أنها قدرة على الفتك والتدمير ، وأن أعظم المنتصرين من يقاس انتصاره بعدد من قتل من المحاربين وغير المحاربين ، وعدد ما ضرب من المدن والقرى فى الطريق ٠٠ ومنهم من كان يظهر الاسلام ويغير على ممالكه لأنها فى زعمه تساس على خلاف شريعة الاسلام !

وفى خلال ذلك جميعه كانت الدولة الاسلامية تتسع وتمتد حتى ينقطع ما بينها من الصلة ويتعذر على القائمين بها أن يجمعوها الى حكومة واحدة ، وكان اتساع الآفاق يصحبه اختلاف المواقع

واختلاف السكان واختلاف المصالح والآهواء ، فلا تلبث أن تتمزق وتتفرق ثم تتعادى وتتعاون على البغى والعدوان .

ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة أو الدول التى سميت بالامبراطوريات فى الزمن القديم .

وقد رأينا كثيرا من المؤرخين يوازنون بين أخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية فى مقدمتها ، أو يجعلونها فاتحه الضربات يتلوها ما تعاقب بعدها من الأخطار والأخطاء .

وهذه الحروب ـ ولا نكران ـ كانت من أعظم الأخطار التى امتحنت بها الأمم الاسلامية ، ولكننا نعتقد أن الخطر فيها انما كان على نقيض المفهوم من هذا الخطر فى عرف الجملة من مؤرخيها ، لأنها فى الواقع لم تنهك قوى الأمم الاسلامية ولم تتركها موقنة بالهزيمة فى نظر نفسها ، بل تركتها وقد أورثتها افراطا فى الثقة برجحانها وافراطا فى سوء الظن بأعدائها ، وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم الى عدة قرون .

ومن آثار الحروب الصليبية التى لاتفوت أحدا من المؤرخين أنها وقفت عوامل الشقاق بين الأمم الاسلامية ردحا من الزمن ، وأنها جاءت بالترك العثمانيين من أواسط آسيا الى أرض الروم ودفعتهم الى مقابلة الغارة بمثلها فى صميم الديار الأوربية ، وأنها أيقظت الشرق الاسلامى كله من تخوم الصين الى جوف الصحراء الكبرى فى القارة الافريقية ، وأن أحمق الحمقى من الصليبيين كان أنفعهم وأقدرهم على اذكاء الحمية فى نفوس الأمراء والسلاطين ، وان منهم لمن شغله الملك فوق اشتغاله بالدين .

وقد كان يوسف صلاح الدين بطل الحروب الصليبية غير مدافع فى نظر الأوروبيين ونظر الشرقيين . ولكن الصفة التى كانت

غالبة عليه ولاشك هى صفة الحلم الراجح والاناة الهادئة وايثـار الكسب بالسلم والمطاولة على الكسب بالعنف والهجوم ، الا أن هذا الرجل الحليم الرصين ثارت ثائرته حتى الجنـون حين سمع بعزم « أرنولد » صاحب الكرك على فتح الحجاز واعداده العـدة فى البر والبحر لاقتحام المدينة والمساس بالقبر الشريف ، وسرى وعيد أرنولد فى المشرق كله فنسى الخصوم خصومتهم والطامعون مطامعهم وأقسم صلاح الدين ليقتلن « أرنولد » بيده ۰۰۰ فكانت وقعـة « حطين » التى تعد من وقائع التاريخ الحاسمة وظفر صلاح الدين بشرذمة من الملوك والأمراء عفا عنهم جميعا الا « أرنولد » هذا فانه لم يقبل فيه شفاعة من أحد وتناول سيفه وضرب عنقه بيده وهو يقول : برئت من شفاعة محمد ان قبلت فى هذا الأحمق شفاعة شفيع ۰

وقد استنكر الصليبيون أنفسهم حماقة أرنولد هذا لأنهم أدركوا أنها استثارات من نفوس المسلمين كل قوة كامنـة وأكسبتهم وقعة « حطين » بعد هزيمتهـم فى الوقائع التى سـبقتها ، وهكذا كان الشأن فى أحمق الحماقات التى اقترفها شذاذ الصليبيين ، فانهـا أفادت من أرادوه بشرها ، وارتدت على أصحابها ، وعجلت بالتوفيق بين المتنازعين والمتنافسين وقد بطلت فيهم حيلة الموفقين ۰

وليس هذا الذى نعنيه من آثار الحروب الصليبية فى نفوس المسلمين ، فانها آثار ظاهرة لم يغفل عنهـا أحد من مؤرخى تلك الحروب ۰

ولكننا نعنى الأثر الذى عاد بالضرر الوخيم بعد عصر الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهذا الأثر الوخيـم العقبى هو افراط المسلمين فى الثقة بأنفسهم وافراطهم فى سوء الظن بالأمم الأوربية وكل ما يأتى من نحوها ، حتى أوشـكوا أن يوقنوا أنهـا

لا تأتيهم يوما بشيء يحتاجون اليه ، ولولا هذه الثقة لما خطر لرجل كسليمان القانوني فى حصافتـه واقتداره أن يتبرع بالامتيـازات الأجنبية لأبناء الأمم الأوربية الوافدين على بلاده ، ولم يكن فى وسعها أن تقسره عليها لو لم يتبرع بها فى غير اكتراث بعقباها ٠

ان الأمم الاسلامية قد أنكرت على الأوربيين الذين قدموا فى جيوش الصليبيين ضروبا من الخشونة والجلافة حسبتها من البربرية التى تعافها وتشمئز منها ، ورسخ فى نفوسهم أن هؤلاء القوم ليسوا بالمسيحيين لأنهم لم يعملوا بوصية واحدة من وصايا المسيح التى يحفظها المسلمون ، وكان أنكر ما استنكروه سماحهم بجلب النساء من بلادهم لمعاشرة الجند معاشرة الأزواج بغير زواج ، وكان أشد من ذلك نكرا لديهم أنهم يعظمون الصور والتماثيل تعظيم عباد الأصنام للطواغيت والأوثان ، فلم ينظروا اليهـم نظـرة الأعلين الى الأدنين وحسب بل وقرت فى أخلادهم سخافة ما يدعون من حق المطالبـة بشيء قط باسم المسيح عليه السلام ، فهم فى دعواهم مبطلون ، وهم غير أهل لتلك المطالبة لو كانوا صادقين ٠

مثل هذا الشعور قد يحيك بصـدور الأمم فى أوقات كثيرة فلا يضيرها بل يمدها فى قوتها اذا خامرها فى ابان النمو والصعود ، ولكن الظروف التى تطورت اليها الحروب الصليبية لم تكن من هذه الأوقات ، بل صادفت على النقيض فترة ذات وجهين من قبل الشرق ومن قبل الغرب ، فكانت فى الشرق فترة هبوط فى النهضات العلمية وكانت فى الغرب فترة صعود فى النهضة العلمية الحديثة ، قامت بعدها أوربة مقام القيادة على هذه النهضة وتخلف الشرق زمنا عن اللحاق بهـا ، وليس أخطر على الأمم من الاكتفاء بالذات والاعتزاز بالرجحان فى أمثال هذه الظروف ٠

هبطت النهضـــات العلمية فى الشرق بعد القرن الثانى عشر على أثر الغارات التى تعاورته فى كل مكان ، وانصبت كوارث هذه الغارات خاصة على معاهد العلم والمكتبات فعصفت بالعشرات منهـــا ما بين بخارى وسمرقند ومرو وبغداد ودمشق وحمص وسائر المدن التى اشتهرت بمعاهدها ومكتباتها فى الزمن القديم ، ويحصى عدد الكتب التى احترقت خلال غارات التتر والمغول وغارات الصليبيين بمئات الألوف وعدد المعاهد والمكتبات بالعشرات والمئات ، وانصرف الأمراء وطلاب العلم عن العنـــاية بالمدارس والمصنفات الى التأهب والاستعداد لدفع المغيرين ممن كانوا يتوقعون غاراتهم واحدة تلو أخرى بغير انقطاع ، وكثرت مطالب الحكام من المحكومين اضطرارا فى أول الأمر ثم اختيارا واعتسافا مع تمادى الزمن حتى ساءت الصلة بين الحاكم ومحـــكوميه ، وتراخى الزمن على أثر الحروب الصليبيـــة واستقرت الأحوال بعض الاستقرار فعاودت البلاد الاسلامية الوسطى شيئا من رخائها على طريق التجارة الهندية ، ثم انقطع هذا الطريق واتجه الرواد الى غيره من الطرق حول القارة الافريقية ، فاجتمع سوء الحكم الى سوء الحال وشاعت الشبهة عن حق وعن باطل بين الرعاة والرعية ، وهذه هى الفترة التى كان ينبغى فيها للشرق الاسلامى أن يطلب المعرفة ويؤمن بضرورة العمل على التقدم أو يؤمن بمزايا العلم الحديث ، ولكنها كانت ـ بحكم هذه الظروف جميعا ـ هى الفترة التى أعـرض فيهـا الشرق عن كل حديث وعمـا يأتى على الخصوص من قبل القارة الافريقية ، فتأخر عن ركب الحضـارة العصرية زهاء قرن كامل ، لو أنه استفادة ناهضا ومجاريا للنهضة فى مضمارها لما قصر عن اللحاق بالسابقين ٠

وجاءت المدارس العصرية من جانبين كلاهما مظنـة للتهمة وكلاهما موضع للحذر والاتقاء ٠

جاءت المدارس العصرية على أيدى الحكومات التى بلغ التنافر بينها وبين المحكومين حد العداء والاتهام بغير بحث ولا روية ، فكان الناس يحسبون التلميذ المطلوب للمدرسة كالعامل المطلوب للسخرة أو كالجندى الذى يساق الى المشقة والوبال فى غير مصلحة أو كرامة ٠

وجاءت المدارس العصرية أيضا على أيدى رسالات التبشير التى صارحت الناس فى ظل الامتيازات الأجنبية بغرضها من فتح المدارس وقبول التلاميذ بغير أجر فى كثير من البلدان ، فأحجم المسلمون عن تعليم أبنائهم فى مدارسها وجاوزوا ذلك الى سوء الظن بالعلم نفسه وسوء الظن بنية المعلمين وايمان المتعلمين ٠

وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الأولى فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها كالفقه واللغة والأدب والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية فنظر الكثيرون منهم الى علوم الجغرافيا والطبيعة والكيمياء كأنها الكفر البواح أو السحر المزيف ، واتصل ما بينهم وبين الخرافة والجهالة بهذا الانقطاع بينهم وبين العلم الصحيح قديمه وحديثه ، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا الخلاص من غير بابه وتوسلوا للعمل فيه بغير أسبابه ، واتهموا الناصحين وأسلموا مقادتهم للمدجلين والمحتالين ٠

وفى هذه الفترة كان الاسلام كما يفهم الجلاء ــ والجهلاء هم الأكثرون فى سائر الأمم ــ مزيجا من الخرافة والشعوذة ومن الطلاسم والأوهام ، ومن الوثنية وعبادة الموتى ٠

وفى هذه الفترة كان بعض المتعالين من أدعياء المعرفة يحكم بكفر القائلين بدوران الكرة الأرضية ولا يتردد فى تكفير من يسميها بالكرة ٠٠

وفى هذه الفترة كان طلاب الفتوى من مشارق الأرض ومغاربها يسألون عن الكبريت هل يجوز مسه ؟ وهل يجوز قدح النار منه ؟ وطبخ الطعام على تلك النار ؟ أو يأثم من يمس « صنفرته » لأنها من مادة نجسة تنقض الطهارة ! ٠

وفى هذه الفترة كان السائلون يسألون عن صناديق التوفير والادخار وعن معاملات التجارة من طريق المصارف والشركات ، ويحسبون أن اللياذ بالأضرحة والتوابيت وترتيل الأوراد والعزائم يغنيهم عن السعى والتدبير وعن الجهاد والاجتهاد ٠

وفى هذه الفترة على الاجمال كان المسلم يعيش فى العالم كمن يمشى فى خرابة مظلمة ، لا يدرى من أين تسرى اليه عقاربها وحياتها ومتى تخرج عليه أشباحها وشياطينها ٠ وانقلب معنى الاسلام الى معنى المخافة والاتهام ، اذ كان أول معانى الاسلام أنه طمأنينة الى الخالق وخلقه ، وكان هذا الاسلام الذى صار اليه المسلمون مخافة لا سلم فيها ولا سلامة ، واتهاما لا تسليم فيه ولا مسالمة ٠

قلنا أن الافراط فى الثقة بالنفس والاكتفاء بها كان فيما بعد الحروب الصليبية مضارعا للافراط فى سوء الظن بالأعداء وتوهم الاستغناء عنهم والريبة بكل ما يأتى من قبلهم ، وقلنا انه اكتفاء بالذات وخيم المغبة فى أمثال هذه الأحوال ٠

ونقول على الدوام انه ما من شر يخلو من بعض الخير وما من ضرر مطلق ان كان معنى الضرر المطلق أنه لا يقبل الترياق أو لايحتويه فى كثير من الأحايين ٠

هذه الفترة من الثقة العمياء لم تخل من فائدتها فى المقاومة والأمل فى التبديل وفى عدل الله بين عباده ، ولم تكد تبلغ أقصى

مداها من الأضرار حتى جاءت بعدها نكبة الاستعمار بنقيض العبرة من دروس الحروب الصليبية ، لأنها شككت المسلمين فى كفايتهم واستغنائهم وشككتهم فى رجحانهم وغلبتهم ، وقام بين المسلمين من يقول لهم ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان الغربيين نجحوا وتقدموا لأنهم أخذوا بالوصايا والأحكام التى كان المسلمون أولى بها لو عقلوا وصايا الدين وأحكامه ٠

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ٠

« فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ٠

نعم ٠ وفى اصطدام الشرق الاسلامى مرتين بالقارة الأوربية مصداق لهذه الآيات البينات ٠

انه سلم من الحروب الصليبية فاكتفى وقنع وغفل عما يحتاج اليه ، وانهزم فى وجه الاستعمار فعرف حاجته وتيقظ لنقصه ، واستقام على النهج الذى لا غنى له عن الاستقامة عليه ، وعادت به البأساء الى « العقيدة الشاملة » التى ميزته بين عقائد الأديان ، فهو فى مده اليوم عند منتصف القرن العشرين ٠ فان لم يبلغ من مده اليوم ما يرجوه لقد ترك تلك المرحلة التى انتهى فيها الى جزره فى أوائل القرن التاسع عشر ، وما فى ذلك من خلاف ٠

الاسلام والمسلمون
فى القرن التاسع عشر

٢ ـ المسلمون

بدأ القرن التاسع عشر وفى العالم من المسلمين نحو ثلثمائة مليون ، وانتهى وعددهم والى أربعمائة مليون موزعون بين آسيا وأفريقية ، وقليل منهم فى أوربة لا يزيدون على خمسة عشر مليونا بين البلقان والقرم وألبانيا واليونان وقبرص ورودس وبلاد البشناق وبولونيا وشواطىء بحر البلطيق فى لتوانيا وفنلندا وما جاورها ٠

ويؤخذ من الاحصاءات الأخيرة أن عدد المسلمين فى دولتى الهند يقارب تسعين مليونا ، وأنهم يبلغون فى جزر السوند الكبرى وجزر السوند الصغرى وجزر الملوك التى تدخل فى دولة أندونيسية نيفا وسبعين مليونا ، ويختلف المقدرون لعددهم فى الصين من خمسة ملايين الى مائة مليون ، فتقويم جوثا يقدرهم بثلاثين مليونا وجلال نورى بك صاحب كتاب اتحاد المسلمين يقدرهم فى داخل الحدود الصينية وفى منشورية وأنام وسيام والهند الصينية وفى الجزر التابعة لانجلترا من أرخبيل ملقا بنحو ستين مليونا ، أما احصاءات بعثات التبشير فهى تقدرهم تارة بثلاثة ملايين وتارة

أخرى بخمسة ملايين فى داخل حدود الصين ، ويرتفع الرحـــاله عبد الرشيد ابراهيم بعددهم الى مائة مليون ، ويقول هانوتو أحد وزراء الخارجية السابقين بفرنسا أنه » قد انبعثت شعبة منه فى الصين فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب بعضهم الى القول بأن العشرين مليونا من المسلمين الموجودين فى الصـــين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء لساكياموني ٠٠ «٠

ويعقب السيد توفيق البكرى على هذا فى رسالته عن مستقبل الاسلام فيقول ان تاجرا بلوجيا جاء القاهرة فى هذه الأيام وكان قد ذهب الى الصين مرارا « يؤكد القول بأن مسلمين الصين يبلغون ثمانين مليـــونا وأن علماءهم يهزأون بقول الأوربيين انهم أربعون مليونا » ٠ ـ

وقد تلقت الصحف الأوربية برقية من الجماعة الاسلامية فى الصين أرسلتها أثناء حرب الصين واليابان تقول فيها انهـا تتكلم بلسان خمسين مليونا من المسلمين ٠

فلا مبالغة ـ مع ملاحظة هذه الاحصاءات جميعا ـ فى تقدير مسلمين الصين اليوم بنحو ستين مليونا ، يضـــاف اليهم ثلاثون مليونا فى التركستان وبخارى والقفجاق وغيرها من ولايات روسيا الآسيوية ، ويضاف اليهم خمسة عشر مليونا فى ايـــران وبـلاد الأفغان ، وثلاثون مليونا فى بلاد العرب والعراق والشام وفلسطين وشرق الأردن وآسيا الصغرى ، وبضعة ملايين فى الجزر التابعـة لانجلترا والولايات المتحدة ، فلا يقل عدد المسلمين الآسيويين عن ثلثمائة مليون ، وان قل فهو بين مائتين وخمســين وثلثمائة من الملايين ٠

أما فى افريقية فالتقدير المعتدل لهم يقارب مائة مليون ، منهم خمسة وعشرون مليونا فى مصر والسودان ، وعشرون مليونا

في طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وعشرون مليـــونا فى الصحراء الغربية والسودان الفرنسى وبحيرة تشـــاد والشواطىء الغربية ونحـو عشرة ملايين فى زنجبار ومدغشقر والســواحل الشرقية والصومال ، وســائرهم بين الحبشـــة وأوغندة وكينيـا وأفريقية الجنوبية •

فليس من المبالغـة أن يقـــدر عدد المسلمين فى العـــالم بأربعمائة مليون أكثرهم فى آسيا وافريقية ، وأقلهـــم فى أوربة عدا ألوفا معدودة فى العالم الجديد •

فهم جميعا بحكم موقعهم من أبناء العالم القديم ، يقابلهـــم سكان أوربة الغربيون الذين نشأت بينهم الحضـــارة العصرية ، ويصدق عليهم وصف واحـــد فى المقابلة بينهـــم وبين الأوربيين المحدثين ، فلا يقال عنهم انهم تقهقروا منتكسين الى الزمن القـديم وانما يقال عنهم انهم وقفوا حيث تقدم غيرهم مع العلم الحديث ، ولا ينسى المنصف فى هذه المقابلة أن الأوربيين الذين تقـدموا هم الأوربيون الذين اتصلوا بالاسلام من قريب ، وهم أبنـــاء أوربة الغربية ثم أبنـــاء أوربة الذين احتكوا بالاســـلام فى الحـروب الصليبية • ولا نعنى أن أسـباب التقدم تنحصر فى هذه الصـــلة أو فى هذا الاحتكاك ، ولكننا نعنى أن الاسلام لم يكن قط قوة مهملة فى حركة من الحركات الانسانية سواء نشـــأت بين ظهرانيـــه أو نشأت فى مواطن أخرى ، وان المؤرخ المحقق لن يستقصى أسبابا للنهضات الانسانية على اختلافها دون أن يرجع بمرحلة منها الى نهاية أو الى مبداية فى عالم الاسلام •

وفى هذه السياق ينبغى الالتفات الى أمر واقع قلما يلتفت اليه المؤرخون من الغربيين أو الشرقيين ، وهو أن محاربة الاسلام

كانت على الدوام نكبة على محاربيه من المستعمرين ، فان السابقين الى الشرق من المستعمرين الأوربيين هم البرتغاليون والأسبان ، ولكنهم لم يثبتوا فى الشرق طويلا لأنهم ذهبوا اليه بسمعة العداء للاسلام ، وكان الأسبان يسمون المسلمين فى جزر الهند بالمور متابعة لما عهدوه من تسمية المسلمين بالمراكشيين ، وكان البرتغاليون أول من نزل بجزائر السوند الكبرى وجزائر السوند الصغرى وما بينهما من الجزائر التى يكثر فيها المسلمون ، فلما تنافس البرتغاليون والأسبان وغيرهم من أبناء أوربة الغربية وأمريكا دارت الدائرة على الأولين لأنهم وجدوا العداء من المسلمين حيث نزلوا بينهم ، وهكذا كان نصيب روسيا فى آسيا الشمالية حيث اشتهرت بعداوة الخلافة الاسلامية ، فقد كان موقف المسلمين منها فى التركستان ومنشوريا والصين الشمالية الغربية عقبة من أقوى العقبات التى رصدت لها فى ذلك الطريق ٠

هذه القوة التى لم تسقط يوما من حساب السياسة العالمية لن تسقط اليوم من هذا الحساب ، وقد توضع السياسات الظاهرة والخفية لحربها واقصائها من الميدان ولكنها تتغلب على هذه السياسات حين تنقلب الأمور على غير ارادة الساسة والمقدرين ، لأن العقيدة الدينية أثبت من برامج السياسة وخططها الظاهرة والخفية ، بل هى أثبت من الجغرافية وما يسمونه حديثا بالسياسة الجغرافية ، لأن العقيدة الدينية تحول السكان حيث تثبت معالم الأرض ورواسى الجبال ٠

ونحن نستطرد هذا الاستطراد فى مقدمة الكلام على المسلمين فى القرن التاسع عشر لأنه يعيد الى الأذهان أخطاء المقدرين وأصحاب السياسات قبل مئات السنين ، ويجعل هذه الأذهان على استعداد

لانتظار أخطاء أخرى من هذا القبيل قد ينكشف عنها الزمن بعد آن قريب ٠

* * *

انقسم العالم فى بداءة القرن التاسع عشر الى حضارة حديثة فى الغرب ، وحضارات قديمة فى الأقطار الأسيوية والافريقية ، وكان المسلمين ـ الا القليل منهم ـ فى هذه الأقطار ٠

تخلفوا عن ركب الحضارة في الصناعات والمخترعات والعلوم الحديثة ، وأصابهم هذا التخلف فى مرافقهم جميعاً ومنها الزراعة والتجارة التى كان قوامها الأكبر على الملاحة الشراعية ٠ فتراجعت شيئا فشيئا أمام ملاحة البحار ، وتراجعت كذلك عن سيادة البحار ٠

ولما تقدمت مرافق الصناعه والتجارة فى الغرب تقدمت معها وسائل التنظيم والادارة ٠ وبقى الشرقيون جميعا ، والمسلمون منهم ، متخلفين فى هذه الوسائل الى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل ٠

وأصبح العالم الاسلامى فى مقدمة الأهداف التي تصوبت اليها حملات الغرب الثلاث وهى حملات التبشير والإستغلال والاستعمار ، ويتقدم التبشير هذه الحملات فى ترتيب الزمن لا فى الخطر والأثر ٠٠ فانه قد بدأت مع الحروب الصليبية حوالى القرن الثانى عشر ، وكان فى كثير من الأقطار رائد الحملة الاستغلال وحملة الاستعمار ٠

أما العالم الاسلامى من وجهة النظر الى مركزه السياسى فقد كان معظمه عند أوائل القرن التاسع عشر فى حوزة الدول الأجنبية،

ولم يبق فيه من الدول التى كانت على نصيب من الاســتقلال فى عرف السياسة غير دول ثلاث ، وهى الدولة العثمانية التى سميت بدولة الخلافة من عهد السلطان سليم ، والدولة الايرانية والدولة الشريفية بالمغرب الاقصى ٠

ولم تكن هذه الدول على شيء من الاستقلال فى غير الظاهر ، لأنها لم تكن تملك من حقوق التصرف فى ســياستها الداخلية أو الخارجية ما تملكه الدول المستقلة ، وأكبر وأقواها ــ وهى الدولة العثمانية ــ كانت عرضه للتدخل الدائم من قبل الدول الكبرى فى كل شأن من شئونها ، اذ كانت هى محور المســألة الشرقية التى تتلخص فى عبارة واحدة وهى تقســيم بلاد الشرق « أولا » بين روسيا وفرنســا وانجلترا ، ثم تلحق بهذه الدول كل دولة أثبتت لها وجودا فى ميدان الاستعمار أو فى ميدان السياسة العالمية على الاجمال ، كالنمسا وبروسيا وايطاليا وأسبانيا ٠

١ ــ الدولة العثمانية :

وكانت المسألة الشرقية قائمة على محو الدولة العثمانيــة ، ولكن الدول التى تعنها هذه المسألة لم تكن على اتفــاق فى طريقة التنفيذ ، ولم تكن على اتفاق كذلك فى العجلة أو الأناة ، ولم تكن على اتفاق بينها فى نصيب كل منها من تركة « الرجــل المريض » كما سميت الدولة العثمانية فى ذلك الحين ٠

فروسيا كانت تستعجل التقسيم لتحتل القسطنطينية ومضايق البسفور والدردنيل ، وفرنسا كانت تتوسط بين العجــلة والأناة لأنها كانت تكتفى بلبنان وسورية وبيت المقدس ولا تحرص على تقويض الدولة العثمانية من رأسها ، وانجلترا كانت تطمح الى طريق

الهند ولا تأبى عند الضرورة أن تساعد فرنســـا لتستعين بها على صد روسيا والحيلولة بينها وبين بلاد البحـر الأبيض ، وحاولت كل منها أن تتخذ لها صفة الرعاية لجميع المسيحيين بالديار الشرقية .. وكانت روسيا وفرنسا قد حصلتا على اعتراف من السلطـان العثمانى بهذه الصفة أولاهما لرعاية الكنيسة الاغريقية والأخـرى لرعاية الكنيسة اللاتينية فحاولت انجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر أن تضيف الى ألقاب التاج لقب الحارس للديانة المسيحية ، ولكن المسيحيين أنفســهم فى الشرق الأدنى لم يعترفوا لهـــا بهذه الصفة لأن أتباع الكنيسة الانجيلية كانـــوا يومئذ جد قليـل بين الشرقيين .

ولم تجد هذه الدول صعوبة فى اقلاق الدولة العثمانيـــة ، لأنها كانت تستخدم سلاح الامتيازات الأجنبية حين تشاء وكيفما تشاء ، وكان القرن التاسع عشر عصر الحركات الوطنيـة فى بلاد المغرب والمشرق ، فلم يكن من العسير على الدول أن تجد المطاوعين لها فى ثورتها على الحـــكم التركى ســـواء من المسيحيين وغـير المسيحيين ، ومنهم مسلمون يطلبون الاستقلال أو ينقمون على الادارة التركية ... ولكن الأمر الجدير بالنظر أن الســـياسة الجهنمية لم تتورع عن خلق المذابح فى المكان المطلوب وفى الآونة المطلوبة ، فحدثت مذابح أرمينية ومذابح لبنان ومذابح الإسكندرية على هذا التقدير كلما كانت لازمة لتنفيذ احدى الخطط التى ترسم قبل ذلك بسنوات أو شهور ، وكانت هذه المذابح هى التى تدعو الى التدخل من جانب الدول الكبرى . أما المذابح فى روسيا أو فى البلقـــان فلم يعرض لها أحد بمجرد الاحتجاج فضلا عن التدخل أو التهديد بالاحتـــلال .

واصطلحت علل الضعف والجمود والخلل جميعا على الدولة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فانهزمت جيوشـها فى ميادين لم تتعود فيها غير النصر العاجل قبل هذه الفترة ، ولما أرادت أن تدرب جيوشها على النظام الحديث تمردت فرق « الينى شارى » التى كانت هى نفسها تجديدا على النظم الحديثة فى حينها كما يدل عليه اسمها ، فقمعتها وكادت أن تستأصلها بالقليل الذى دربته على الأساليب العصرية ، قبـل أن يتم لديهـا من الجيوش العصرية ما يغنيها فى حروبها المتتابعـة . وكانت قد استكثرت من عقـد القروض لسداد نفقات هذه الحروب واشباع نهمة السلاطين والأمراء الذين أفسدهم الضعف والاستبداد فانغمسوا فى الترف والبذخ وكلفوا بلادهم مالا تطيق من الضرائب والاتاوات ، وأفضى سـوء السياسة المالية الى اعلان الافلاس والعجز عن أداء فوائد الديون (فى سنة ١٨٧٤) فى مواعيدها ، واعتمد ساسة الباب العالى فى مقاولة الدول صواحب الديون وصواحب الامتيازات على المضـاربة بينها ومنح الامتيازات الاقتصـادية تارة لهذه وتارة لغيرها ، وقد كانت الدولة البروسية تبرز شيئا فشيئا الى ميدان السـياسة العالمية ولا سيما بعد حرب السبعين التى انتصرت فيها على فرنسا ، فاتخذ منها ساسة الباب العالى ذريعة للتخويف والتهديد ، ورحبوا بالاتفاق معها على اصلاح المواصـلات الداخليـة فمنحوها (فى سنة ١٨٨٨) امتيازا بمد الخط الحديدى الى أنقرة بعد امتداده فى المجر الى القسطنطينية ، وأتبعوا هذا الامتياز بامتياز آخر لمد الخط الى قونية على أن تخترق السكة آسيا الصغرى الى الشام وبغداد ، ولم تقف الدولة الانجليزية مكتوفة اليدين أمام هذا الخطـر الذى يقترب من الهند ولكنها اضطرت الى التراجع والسكوت حين لمحت من بروسيا بوادر الاتفـاق عليها مع فرنسا على هذا الجانب من

جوانب المسألة الشرقية وعلى التدخل فى القضية المصرية لمطالبتها بالجلاء عن مصر تحقيقا لوعدها ٠

ومن خطوط المواصلات الهامة التى تمت فى بلاد الدولة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهايته قناة ـ السويس (سنة ١٨٦٩) وسكة حديد الحجاز (من سنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٨) وهى السكة التى تجاوبت بأخبارها دوائر الاستعمار على أنها تعبئة من تعبئات الجامعة الاسلامية ٠

والى هذه الآونة كانت كل دولة ذات أثر فى المسألة الشرقيه قد انتزعت لها قطعة من بلاد تركيا فى أوربة أو آسيا أو افريقية ، ما عدا بروسيا التى سيطرت فى هذه الآونة على الأقاليم الآلمانية بأجمعها ، فاغتنم عاهلها « ولهلم الثانى » هذه الفرصة للتقرب من تركية ومن العالم الاسلامى بأسره ، وزار الآستانة وبيت المقدس ونادى فى بعض خطبه بصداقة دولته للثلثمائة مليون مسلم المنتشرين بين بقاع المشرق ، ونظر ساسة الترك الى دولة اوربية يعتمدون عليها فى تنظيم جيشهم فلم يطمئنوا بطبيعة الحال الى روسيا ولم يجدوا عندها الكفاية الفنية لهذه المهمة ، ولم يطمئنوا الى انجلترا لأن وزيرها جلادستون أعلن غير مرة وجوب «طرد الترك» بقضهم وقضيضهم من كل بقعة فى أوربة ، فرحبوا بالمساعدة الألمانية على تنظيم الجيش وتدعيم الأسطول على حذر ، ولم يكن عبد الحميد داهية بنى عثمان لينسى مؤتمر برلين ومرامى الألمان فى الوقت المعلوم نحو المشرق ، ولم تغب عنه الدعوة العسكرية والثقافية التى نجحت بين الألمان المعاصرين واتخذت صيحتها (الى الشرق) شعار تردده وتعلق عليه الآمال فى توسيع ملك الجرمان واستيلائهم على طريقهم من برلين الى آسيا الصغرى الى أواسط آسيا ، ولم يخف عليه ما وراء حملة العاهل الجرمانى

على الآسيويين وتحذير الغرب من يقظتهم وتأليبه الأوربيين على الشرق كله باسم الحذر من الخطر الاصفر ، فتوخى فى سياسته على الدوام أن يجنح الى كل دولة من دول الاستعمار بمقدار وترك بعده ساسة تربوا فى مدرسته (حتى من أقطاب تركية الفتاة) ينهجون نهجه فى مسلكهم بين تلك الدول ، فكان الكثيرون منهم يميلون الى الحيدة عند اشتباك الحرب العالمية الأولى • وليس بالصحيح أن ساسة الترك كانوا مجمعين يومئذ على دخول الحرب الى جانب دولتى المحور ، ولكن الصحيح أن دول أوربة الغربية استثارت الترك الى محاربتها لتضمن بذلك معاونة الروس الى النهاية طمعا فى القسطنطينية ، وتضمن معاونة المتربصين بالرجل المريض من دول البحر الأبيض المتوسط وسائر الدول الطامحة الى الشرق الأدنى ، وقد يفيد فى بيان الأعاجيب من خفايا سياسة الاستعمار أن نومىء هنا ــ على غير تأييد ولا تفنيد ــ الى ما قيل عن دسائس المستعمرين التى أحكموا تدبيرها للتعجيل بالثورة الروسية بعد سقوط آل رومانوف ، فلعلهم لم يجدوا لهم مخلصا أوفق من للتحلل من الاتفاق مع آل رومانوف على دخول القسطنطينية •

٢ ــ ايران

كان على عرش ايران فى مفتتح القرن التاسع عشر شاه من أسرة قاجار ــ اسمه فتح على شاه ــ ولى الملك بعد عمه أغا محمد الذى اشتهر بصرامته وقسوته فى اخضاع ثوار الكرج وخراسان • وقد سمى فتح باسم رأس الأسرة ولكنه لم يكن على نصيب من خلائق المؤسسين والفاتحين غير الطمع وحب الفخفخة ، فاغتر بمظاهر التعظيم التى أحاطه بها رسل الدول الأجنبية وراقه أن يرى بلاطه قبلة للسفراء والوفود من ملك الغرب فاستسلم لهذا الغرور

وتحالف مع بريطانيا العظمى على الأفغان لاسترجاع أقاليم فارس الشرقية ، واملى له فى مجاراة السياسة البريطانيه أن روسـيا انتزعت من فارس بلاد الكرج تلبية لطلب أميرها جورج الثانى عشر ، فاستقبل الشاه مندوب شركة الهند الشرقية سير جون ملكولم وعقد معه محالفة سياسية تجارية تتعهد فيهـا الشركة بامداد فارس بالسلاح والمال فى حالة الاعتداء عليه من جانب الأفغان أو فرنسا ، ويتعهد فيها الشاه بألا يعقد صلحا مع الأفغان ما لم تتزل هذه عن مطالبها فى الهند ، وقد تمكن الشـاه من صد الغارة الروسية على « أروان » فى سـنة ١٨٠٤ بمعاونة الضـباط الانجليز وضغط السياسة الانجليزية ، ثم أبرم فى أواخر سنة ١٨١٤ ـ بعد نكبة نابليون ـ محالفة عامة تتعهد فيها فارس بالغاء جميع الاتفاقات مع الدول المعادية لانجلترا وتتعهد فيها انجلترا بنقدها مائة وخمسين ألف جنيه وتبادل المعونة فى حالة الدفاع ٠

ولم تمض على هذه المعاهدة بضع سنوات حتى التحمت فارس وتركية فى الحرب التى انتهت بصلح أرضروم ، ثم حاربت روسيا على أثر احتلال هذه لبعض الأقاليم المتنازع عليها فانهزمت وتخلت عن أروان وتبريز (١٨٢٧) وخذلتهـا انجلترا فى هذه الحرب فاستدارت بسياستها الى مجاراة روسـيا ٠٠٠ وأخرجت البعثة العسكرية الانجليزية التى قدمت اليها لتدريب جيشها على النظم الحديثة وهاجمت « هرات » ثم تفاهمت مع حكام الهنـد على فك الحصار عنها ، وفى سنة ١٨٥٦ شهرت انجلترا الحرب على فارس ـ اذ عادت الى مهاجمة هراث واستولت عليها ـ فاحتـل الانجليز بوشير والمحمرة وتراجع الجيش الايرانى عن أرض الأفغـان ثم تم الاتفاق على الحدود الأفغانية الايرانية ٠

وفى سنة ١٨٦٤ أنشىء أول خط تلغرافى بين بغداد وطهران

وبوشـر على اعتبـاره « توصيلة » للخوط الهنـدية ، وافتتح خط أوديسة وتفليس وطهران بعد ذلك ببضع سنوات ٠

واستمر السباق بين انجلترا وروسيا على كسب الامتيازات والرخص من الحكومة الايرانية ، فلما حصل البارون دى روتر على امتياز باستغلال بعض الموارد الايرانية وارتهان المكوس الجمركيه أسرع الروس الى احباط هذا الامتياز وحصلوا على الاذن بانشـاء فرقة القوزاق والحاقها بجيش ايران ٠ ثم احتلوا مدينة « مرو » واستولوا على بلاد التركمان ، (سنة ١٨٨٤) وتجددت مساعى الماليين الانجليز فمنحوا امتيازا بافتتاح نهر قارون للملاحة ، ومنح البارون دى روتر هذه المرة امتيازا بانشاء المصرف الامبراطورى مع الترخيص له باستغلال المناجم فى ايران ما عدا مناجم الذهب والفضة (سنة ١٨٨٩) ٠

وبعد هذا الامتياز بسنة واحدة حصلت احدى الشركات على امتياز الدخان المشهور الذى تصدى جمال الدين الأفغانى لاحباطه ، ثم تمادى الشاه (ناصر الدين) فى الاقتراض وبذل الرخص ورهن الموارد ، ومنها قرض انجليزى فى مقابلة رهن المكوس الجمركية بالخليج الفارسى ، فتمكن جمال الدين من اثارة القوم عليه واغرائهم بعصيانه واغتياله على البعد والقرب فقتل فى سنة ١٨٩٦ وقيل ان قاتله صاح به وهو يضربه (خذها من جمال الدين) ٠

وجلس ابنه مظفر الدين على العرش فأصبحت ايران فى عهده نهبا مقسما بين النفوذين ومساعى المستغلين من الجانبين ، فتقدم بنك الخصم الفارسى ــ وهو فرع من وزارة المالية الروسـية ــ باقراض الحكومة نيفا وعشرين مليـون روبية فى مقابلة مكوس الجمارك بجميع أنحاء البـلاد ما عدا خليج فارس ، واشترط على

الحكومة أن تضفى القرض الانجليزى ولا تتقبل قروضـــا أخرى مدى عشر سنوات (فى سنة ١٩٠٠) ٠

واحتاج الشاه الى قرض آخر بعد سننين فأمدته به الحكومة الروسية فى مقابلة الترخيص لها بمد السكة الحديد من جلفة الى تبريز فطهران ، أوشـك الاتفاق أن يتم على مد الخط الى شواطىء الخليج لولا المقاومة الشديدة من جانب الانجليز ، تعززها مساعى الماليين على يد (دارسى) من زيلاندة الجديدة لاغناء خزانة ايران عن معونة الروس ، فانعقد الاتفاق بين دارسى D'arcy وحكومة ايران على الترخيص له باستخراج النفط من منابعه التى كشفت بعد ذلك بمسجد سليمان ، وحصة الحكومة من الأرباح ست عشرة فى المائة عدا رسوم الامتياز وحصة بقيمتها من أسهم الشركة ٠

ولما كثرت المطالب والرهون على مكوس الجمـــارك وضعت الادارة كلها فى عهـــدة نوس البلجيكى وكادت الدولة أن تشهر افلاسها ، وتفاقم سخط الشعب فثار على الشاه وعلى وزيره عين الدولة المسئول عن ســـياسة القروض والرخص والرهون ، ولاذ الثوار بمبنى السفارة البريطانية (يوليه ســنة ١٩٠٦) فاسرع الشاه الى عزل عين الدولة والمناداة بالدســتور ، وكظمه الغيظ فمات بعد افتتاح مجلس النواب بأسا بيع (ديسمبر سنة ١٩٠٦)٠

أما الدولتان المتنافستان على سلاب فارس فانهما قابلتان اعلان الدستور بالاتفـاق الودى المشهور باتفـــاق سنة ١٩٠٧ ، فاعترفت روسيا بمصـــالح انجلترا فى الخليج الفارسى واعتبرت الجزء الجنوبى الشرقى فى المملكة « دائرة نفوذ بريطانية » وسلمت انجلترا باعتبار الجزء الشمالى منها دائرة نفوذ روسية ، وتركتا بين الدائرتين بقعة مفتوحة لكلتا الدولتين ، وختمتا الاتفاق بتوكيد الحرص على استقلال البلاد وسيادتها ؟

ولم تمض على هذا الاتفاق سنة واحدة حتى كان الشـــاه الجديد « محمد على » ألعوبة فى أيدى الروس لأنه آثر الخضـوع للدولة الأجنبية على الخضوع لأحكام الدستور ٠ فأغلق المجلس واعتقل أعضاءه وأنصاره ، وأعلن الحكم العرفى وأمعن فى المتظاهرين تقتيلا وتشريدا واستعان بالجيش الروسى على قمع الثـــوار فى تبريز ، وكانت قوتهم فيها غالبة على قوة الشاه ٠

ثم اغتنمت انجلترا الفرصـــة فعملت على انشـــاء الشركة الانجليزية الفارسية لاستغلال امتياز دارسى باستخراج النفط فى جزيرة عبدان ، واشتد غليـــان الشعور الوطنى فهجـــم الزعيم البختيارى على قولى خان على طهران وخلع الشـــاه ، ثم ظهـرت السياسة الأمريكية فى الميدان فقـــدم الى طهران مستر مورجان شستر Shuster – بطلب من المجلس – لتنظيم الادارة الماليـة وافتتح عمله بانشاء فرقة عســكرية فى خدمة الخزانة ، وتطمين انجلترا بدعوة ضابط بريطانى لقيادة تلك الفرقة ، فأطلقت روسيا الشاه من مأواه وأرسلته الى « استراباد » وأغارت على الشمال منذرة المجلس بالتقدم الى الجنوب ان لم يبـادر الى طـرد شستر ومرءوسيه ، فرفض المجلس انذارها وأصر على استبقائه ، وظهرت فجأة فى طهران جماعة من الرؤســـاء ذوى النفوذ بين القبائل فأغلقوا المجلس وقبضوا على أزمة الحكومة ومن ورائهم قوة الدوله الروسية ، وظلت فارس فى قبضة الروس الى ما بعد اعلان الحرب العالمية الأولى ٠

٣ – مراكش

كانت مراكش فى بـداءة عصر الاســـتعمار أول هـدف للمستعمرين لأنها كانت على أقرب نظرة من دول الاسـتعمار فى

أوربة الغربية ، وكانت فى الزاوية المقابلة لأوربة الغربية تشرف على البحر الأبيض وعلى المحيط الأطلسى فكانت فى هذا الموقع مطمح الأنظار أمام فرنسا وأسبانيا وانجلترا ، ولكن فرنسا لم تتقدم اليها لأنها كانت مشغولة بحروبها فى القارة وكانت تعلم أن انجلترا لا تطيق دولة كبيرة على العدوة المقابلة لجبل طارق ، وأسبانيا وصلت الى أوائل القرن التاسع عشر وهى تلهث من الاعياء وتكاد بعد تنازع طلاب الملك فيها أن تصبح فى عداد المستعمرات الخاضعة لغيرها . أما انجلترا فكان جبل طارق يغنيها فى ذلك الموقع عن العدوة الافريقية وكان همها أن تبقى مراكش فى يد أبنائها وفى حوزة حكومة لاتقوى على منازعتها ، وكانت وجهتها الأولى أن تحتل البحر الأبيض من شرقه عند مجاز التجارة الهندية فلم تشأ أن تحسب عليها مراكش بدلا كبيرا فى سوق المساومات الاستعمارية ، واتفق بعد ظهور ألمانيا فى ميدان الاستعمار وانتصارها على فرنسا أن المسألة بحذافيرها طرحت على مائدة المؤتمرات الدولية فتفاهمت فرنسا وانجلترا على التعاون المشترك فى قضيتى مراكش ومصر واستقر الرأى على تقسيم مراكش بين فرنسا وأسبانيا والمنطقة الدولية .

وقد بدأ القرن التاسع عشر ومراكش على شىء من القوة بالقياس الى بلاد افريقية الشمالية ، فتصدى زعماؤها لمقاومة الفرنسيين بالجزائر بعد أن سلمت الدولة العثمانية بمركز الفرنسيين فيها وزحف الجيش المراكشى الى تلمسان مستثيرا قبائل العرب والبربر فى طريقه واستطاع « أبو معزى » المراكشى أن يقتحم الجزائر بعد احتلالها بخمس سنوات ولم يتمكن القائد الفرنسى من مقاومته الا بنجدة قوية جاءته من فرنسا ، ولكن سلطان مراكش لم ينقطع عن مناوشة فرنسا بعد هزيمة أبى معزى وأسره الى أن تلاقى الجيش المحتل وجيش السلطان فى سنة ١٨٤٤ فمنيت

جيوش السلطان بهزيمة منكرة اضطرت لها جوانب المغرب ونبهتها من غفلتها فنهضت لاصلاح الجيش وتثمير المرافق الوطنية ، ووافق ذلك قيام السلطان « مولاى الحسن » بالملك ــ وهو من أقدر سلاطين المغرب ــ فأحسن التصرف فى مواجهة الدول المستعمرة والاستفادة من تنافسها وتنازعها ، وأدخل الأســاليب العصرية على دواوين الحكومة ومعامل الصناعة ومدارس التعليم وأكثر من ايفاد البعثات الى جامعات الغرب لتخريج الخبراء فى الشئون الفنية والعسكرية .
ومن فضائح الاستعمار أن الدول الموقعة على معاهدة مدريد احتجت عليه حين اتصــل بالآستانة لمثل هذا الغرض واعتبرت ذلك منه اشتراكا فى حركة دينية معادية لا تنظر اليهــا بعين الارتيــاح والاطمئنان ، واستنكرت تجديد العلاقة بين حكومة الآستانة وحكومة طنجة والتمهيد لتبادل السفارات بينهما لأنه يغير الوضع السياسى الذى اتفقت تلك الدول على أن تلاحظ فيه بقــاء الحالة الراهنــة .

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت دول الاستعمار فى موقف يسمح لها بالتفاهم على هذه القضية العسيرة . فبريطانيا تحسب حساب اليقظة الوطنية فى مصر فتجنح الى مسالمة فرنسا ، وفرنسا تسترضى ايطاليا وتعدها بالاغضــاء عن مطامعهــا فى ليبيا ، والنمسا تطمع فى بلاد البشناق من تراث الدولة العثمانية ، وألمانيا تعلم أن الحرب العالمية دون وصولها الى مقام فى المغرب الأقصى لمعارضة انجلترا وفرنسا وترضى بنصيبها فى الكونغو وبلاد التوجو من القارة الافريقية .

وفى هــذه الأثناء توفى الســلطان الحسن وخلفه الســلطان عبد العزيز والمغرب الأقصى فى أشــد مآزقه وأحوجهــا الى الحزم والحنكة ، فعبث فى مقام الجد وسوأ سمعته فى العالم الاسلامى فضلا عن العالم الأوربى بما كان يشتغل به ــ أو يتلهى به على الأصح ــ من سفساف الأمور ، وأرسل الى مصر وغيرها فى طلب

المغنين والراقصـــات وأطمع الدول في العدوان على بـلاده بهزله وغرارته ، فانعقد مؤتمر الجزيرة (سنة ١٩٠٦) فى أسوأ الظروف بالنسبة الى المغرب وشهده مندوبون من قبل السلطان وافقوا على ما تقرر فيه باتفاق الدول التى اشتركت فيه وعدتها بضع عشرة دولة ، وكانت قرارات المؤتمر فى ظاهرها مؤيدة لاستقلال مراكش وسيادتها ولكنها ناطت بفرنســا مهمة الحراســة وتنظيم ادارة الشرطة ، فكان هذا الاعتراف بالاستقلال والسيادة من قبيل اعتراف انجلترا وروسيا باستقلال ايران ذودا للدول الأخرى عنها وانفرادا بالنفوذ فيها ، ومعنى الحراسة الفرنسية مع هذا الاستقلال هو اطلاق يد فرنسا شيئا فشيئا في البلاد وتحريم التعرض لها على غيرها .

وشبت الثورة الوطنية على أثر مؤتمر الجزيرة لعجز السلطان واسترساله في لهوه واسراعه الى اقرار الوضع الجديد فى بلاده ، فبويع السـلطان عبد الحفيظ بعده وتعهد قبل مبايعته بمقـاومة السيطرة الأجنبية واعلان الاحتجاج على قرارات مؤتمر الجزيرة ، فتعلل الفرنسيون بهذه المقاومة للعهود الدولية وأغاروا على العاصمة وأعلنوا الحماية فكان اعلانها فى تلك الآونة (١٩١٢) أول خطوة من الخطوات الحثيثة التى دفعت بالعالم الى الحرب العالمية الأولى ، ثم انطلقت يد فرنسا بعدها فى شمال افريقية بغير معارضة من الدول المنهزمة التى تحول بينها وبين التبسط فى مطامع الاستعمار .

أمم غـير مسـتقلة

وهكذا تطورت الحوادث بالدول الاسـلامية المستقلة خـلال القرن التاسع عشر الى أوائل القرن العشرين ٠

أما الأمم التى كانت فى حكم غيرها خلال هذا القرن فشأنها فى حاضر الاسلام ومستقبله لا يقل عن شأن الدول المستقلة ، سواء بكثرة عددها ومواقع بلادها ومكانتها من عالم الحضارة ، وأكثر المسلمين عددا على هـذا الترتيب هم مسلمو الهند ومسلمو الجزر الشرقية (أندنيسية) ومسلمو الصين ٠

١ ــ الهند

فى أوائل القرن التاسع عشر ثبت حكم الانجليز فى الهند وخيل الى الأكثرين أنه قد صار فيها معلما من معالم الاقليم كالجبال والأنهار ٠٠٠ وتندر المتندرون بموعد خروجهم منهـا فرددوا تلك الكلمات المشهورة عن المواعد التى تضرب لوقوع المستحيل ، ومنها أنهم يخرجون فى الثلاثين من شهر فبراير ، أو يخرجون حين يلتقى أحدان ، أو حين يلتقى المشرق والمغرب ، ٠٠ وهيهات يلتقيان ٠

واذا كان ثمة أحد فى الهند كان يؤمن بخروج الانجليز منها لا محالة فهم مسلمون ، لأنهم على يقين بوعد كتابهم أنهم هم الأعزة

اذا اســـتقاموا من أمورهم ، ولا يغير الله ما بقــوم حتى يغيروا ما بأنفسهم •

وقد شعر المستعمرون بصعوبة مراس هذه الأمة ودخلوا الهند والدولة التى تقودهـــا فى أيدى المسلمين فحاربوهم وعملوا على اضعافهم وصرح أحدهم لورد ألنبرو Ellenborough بعداوتهم فقال : « ليس فى وسعى أن أغمض عينى عن اليقين بأن هذا العنصر الاسلامى عدو أصيل العداوة لنا وأن سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه الى تقريب الهندين » وجهر لورد ألفنســتون Elphinstone فى سنة ١٨٥٨ بوجوب التفرقة بين المسلمين والهنديين فى ادارة البلاد ، وهى الخطة التى نادى بها كاتب المجلة الآسيوية قبل ذلك بنيف وثلاثين سنة •

« وكان المسلمون فى ابان دولتهم قانعين من الحياة العـامة بالوظيفة الحكومية وذادهم عن الاشتغال بالصــيرفة أنهم يحرمون الربا ، وعن ملك الأرض أن الأرض لم تكن مملوكة لأحد ولكنهـا كانت متروكة للزراع والجباة الذين يؤدون للحـكومة حصتها من الضرائب ، وكان أكثر هؤلاء الجباة من البرهميين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها فلما أصدر الانجليز قانونا لتسوية مسائل الأرض الزراعية جعلوا هؤلاء الجباة ملاكا وجعلوا الزراع أجراء فى أرضهم واعتمدوا على هذا النظام زمنا لتحصيل الضرائب ومحاسبة الجباة عليها ، فاجتمع الحرمان من الوظائف والحرمان من الأرض على اقامة العزلة بين المسلمين وغيرهم فى الحياة الاجتماعية » (١) •

ثم زاد المسلمين ضعفا أنهم حرموا وسائل التعليم الحديث لأن المدارس الحديثة كانت فى أيدى المبشرين ، وأن البراهمة بالغوا فى عزلة الطوائف والطبقات بعد انتشار الاســلام بين صفوفهم ،

---

(١) كتاب « القائد الاعظم » للمؤلف •

وشرح ذلك أحدهم الأستاذ لونيا مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية هولكار فقال : « ان المسلمين أول قوم أغاروا على الهند ولم تستوعبهم حياة القارة الهندية المرنة التى لا تنى وتنطوى على المغيرين ، وقد أغار قبلهم كثيرون كالاغريق والسيثيين والمغول المجوس وغيرهم وانطووا فى الغمار بعد أجيال قليلة انطواء تاما بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وأزيائهم وآرائهم ، وفنيت جموعهم فى الواقع خلال المجتمعات الهندية الا المسلمين • فانهم لم يزالوا فى الهند طائفة منفصلة ، ورفضت نياتهم المتشددة فى الوحدانية كل هوادة فى قبول الشرك والأرباب المتعددة ، ومن ثم عاش المسلمون والبرهميون فى أرض واحدة دون أن يمتزجوا ولم تفلح محاولة من المحاولات فى وضع القنطرة على الفجوة ، وما برح المسلمون خلال القرون التالية يولون وجوههم شطر الكعبة بمكة وينفردون بشريعتهم ونظام ادارتهم ولغتهم وأدبهم وأضرحتهم وأوليائهم » •

وشهد المؤلف بفضل المسلمين فى تعليم أهل الهند مبادىء المساواة ولكنه قرن هذه الشهادة بقوله : ان احدى النتائج التى نجمت من حكم المسلمين فى الهند أن المجتمع قد انقسم فى عهدهم قسمة رأسية وكان قبل القرن الثالث عشر ينقسم ولكن قسمة غير رأسية ، ولم تستطع البوذية ولا الجينية أن تحدثا مثل هذا الانقسام لأنهما ما عتمتا أن اندمجتا فى المجموع بسهولة وسرعة ، على حين أن الاسلام قد شق المجتمع من الأسفل الى الأعلى شطرين متقابلين : براهمة ومسلمين • فنشأ فى أرض واحدة مجتمعان متوازيان متغايران فى جميع طبقاتهما قل أن تصل بينهما علاقة فى المعيشة أو معاشرة ، واشتدت محافظة البرهميين أمام غيرة الاسلام فى نشر دعوتهم الدينية فاندفعوا مع خوفهم وحرصهم على حماية مجتمعهم والمبالغة فى قيود الطبقات والطوائف وما اليها من القيود الاجتماعية » •

وهـذه القيود الاجتماعية تشمل الطعام والشراب والأعراس والمآتم بما فيها من مباحات عند قوم محرمات عند آخرين ٠

وازدادت هذه العزلة بعد شيوع المقاومة الوطنية بين الهنديين ، لأن زعيمها الأكبر طيلاق بنى دعوته صراحة على تخليص الهند من الغرباء والغاء اللغـة الأرديه وابطال القوانين التى تحترم شـعائر المسلمين ، ونظر الى المسلمين نظرته الى الانجليز ، ثم نهجت على سنته جماعة الغلاة الذين جهروا بضرورة القضاء على كل أثر للاسلام فى الهند وندبوا أحدهم لقتل غاندى لأنه كان يوصى بغير هذه الخطة فى معاملة المسلمين ٠

ان الأستاذ لونيا الذى اقتبسنا ما تقدم من كلامه لم يعلل نجاح الاسلام حيث أخفقت البوذية والجينية ، ولو أنه علل هذا النجاح بعلته الصحيحة لأظهر الخطأ البين فى قول القـائلين أن الاسلام قد شاع بين المنبوذين لأنه خولهم حقوق المساواة بينهم وبين سائر الطبقات ٠ فان البوذية كانت خليقة أن تنجح مثل هذا النجاح لو كان مرجعه الى معاملة المنبوذين ، وانما يتجلى هنا سر نجاح الاسلام الذى أجملنا بيانه فيما تقدم من هذه الرسالة ، وهو شمول العقيدة الاسلامية وعلاجها النفس الانسانية من داء الفصـام الذى يقلقها ولا يريحها الا باعتزال الدنيا وحل المشكلات بتجاهلهـا والخروج منها ، فهذا الشمول هو مصـدر القوة الغـالبة والقوة الصامدة فى المسلمين ، وهو هو البقية التى بقيت لهم فى الهند بعـد زوال الدولة وزوال المناصب الكبرى والوظائف الصـغرى والحرمان من ثروة الأرض والمال ومن زاد العلم الحديث والخبرة العملية والعزلة أمام الحكومة المسيطرة وأمام الكثرة التى تربى على ثلاثة أضعاف ٠٠٠ ومن أعماق هذه العقيدة الشاملة نجمت لهم عدة الخلاص حين لم يبق للهندى المسلم من عدة غير أنه مسلم وكفى ، وتحركت بينهم أقدر دعوة للاصلاح برعاية السيد أحمد خان ،

ويرجع مبدؤها الى انشاء جماعته العلمية فى عليجرة (سنة ١٨٦١) ثم انشاء صحيفته « تهذيب الأخلاق » وكلية عليجرة بعد رحلته الى انجلترا (سنة ١٨٧٠) ٠

وتشعبت حركات الدعاة الاسلاميين فى الهند خلال النصف الأخير من القرن التاسععشر على حسب اتساع الأقاليم والمشارب فظهر فيها من اتخذ من ابتداء القرن الرابع عشر للهجرة حجة للظهور بدعوة الاصلاح ثم دعوة المهدية على قول من قال انه يظهر على رأس كل مائة سنة داع يجدد شباب الدين ، ومن هؤلاء غلام أحمد خان القاديانى الذى نشر فى أوائل القرن الهجرى كتابه « براهين الأحمدية » ثم ادعى أنه المسيح المنتظر بعد بضع سنوات ثم ادعى (سنة ١٩٠٤) أنه أقنوم كرشنا وأقنوم الروح الالهى كله ، فاتبعه فى أول الأمر طائفة من المصدقين ، ثم انقسم أتباعه فريقين : فريق يدين بنبوته وفريق يحسبه من المصلحين ويرفض ما يروى عنه فى دعوى النبوة والحلول ٠ وقد أحيط ظهور القاديانى بالشبهات لأنه لقى من تشجيع الحكام البريطان ما لم يكن مألوفا منهم فى معاملة أمثاله ، ثم جاءت فتواه بقبول الحكم الأجنبى وتفسير أمر الجهاد على هوى الحكومة مرجحة عند الأكثرين لتلك الشبهات ، وانما استحق الخلاف عليه أن يقوى لأن هذه الفتوى حملت على محمل التقية ، وهى مقبولة فى اعتقاد بعض الفرق من الشيعة منذ لقى الدعاة الى أهل البيت ما لقوا من عسف الأمويين والعباسيين ٠

على أن الهند — مع بعدها فى المشرق — كانت تتجاوز بكل صدى قريب أو بعيد من الدعوات الاسلامية فى بلاد العرب ، فسرعان ما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردد صداها فى البنغال (سنة ٨٠٤) واتبعتها طائفة الفرائضية بنصوصها الحرفية ٠ فاعتبرت الهند دار حرب الى أن تدين بحكم الشريعة ، ثم تردد صدى الدعوة الوهابية بعد ذلك بزعامة السيد أحمد الباريلى

فى البنجاب وأوجب على أتباعه حمل السلاح لمحاربة السيخيين ، وتقدمهم فى القتال حتى قتل (سنة ١٨٣١) ونهض من بعده تلميذه كرامة على فاتصل بطريقة الفرايضية وأفتى بأن البلاد الاسلامية تجب فيها صلاة الجمعة ولا تحسب من ديار الحرب وان كان الحكم فيها لغير المسلمين .

وترامت الى الهند أنباء الدعوة المهدية فى السودان وبخاصة بعد وقعة « هكس » المشهورة وانهزام القائد الانجليزى فيها ، فقد حذر الانجليز مغبة هذه الدعوة ونشروا فى أرجاء الهند مئات الألوف من فتاوى العلماء المنكرين لها ، وذهب بعض ساستهم الى الزعيم المصرى « أحمد عرابى » فى منفاه بسيلان يسألونه عن مهدى السودان فكان جوابه لهم من جنس السؤال .. وقال لهم ان المهدى فى الاسلام هو كل من هداه الله .

وقد تطلعت الهند الى دعوة جمال الدين الأفغانى كما تطلعت الى الدعوات التى سبقتها ، وصح فيها أنها كانت لاتساعها وتعدد بيئاتها أصلح الميادين لتجربة النافع والضار من حركات العاملين باسم الدين ، فثبت من تجاربها جميعا أن أصلح الحركات وأدومها أثرا هى حركات التجديد التى تجارى العصر ولا تنقطع عن أصول الدين ، وأخفقت فيها حركات الجامدين المتشبثين بالحروف ، كما حبطت فيها حركات المبتدعين الذين انقطعوا عن الأصول وخرقوا فى العقيدة خرقا يخالف جوهر الاسلام .

ولقد بدأ القرن العشرون والمسلمون فى الهند يتطلعون الى دولة الخلافة ، ثم أسفرت الحرب العالمية الأولى عن شدة فى الحركة الوطنية لم تكن معهودة من قبلها ، ثم بلغت هذه الشدة قصواها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وتعاقبت التجارب التى يراد بها تسليم الوطنيين زمام الحكم حتى استقرت على التجربة الأخيرة بقيام دولتى الهند والباكستان .

٢ ـ أندنيسية

واذا كانت الهند أوفى الميادين بتجارب الحركات الدينية فالجزر الأندنيسية أوفى الميادين بتجارب الاستعمار بأنواعه ومشتقاته ، لأنها كابدت ضروب الاستعمار التجارية والزراعية والثقافية والسياسية ، واختبرت أساليب البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانجليز واليابانيين ، وعاصرت الاستعمار من أيامه الأولى فى الشرق الى أيامه الأخيرة على النحو الذى صار اليه فى القرن العشرين ، ولا نظن أن خطة من خطط الاستعمار اتبعت فى ناحية من أنحاء العالم لم يتبع لها شبيه فى هذه الجزر التى تعد بالألوف ٠

ولعل هذه الجزر أصلح مكان لتقرير الحقائق عن سر انتشار الاسلام بين الأمم التى كانت تدين بغيره قبل وصوله اليها ٠ ففى كل موضع فيها تصحيح لأوهام من يزعمون أنه دين ينتشر بالسيف ولا ينتشر بغيره ، وفى كل موضع دليل من الواقع على فعل القدوة الحسنة فى انتشاره بغير عنف بل بغير اجتهاد فى الدعوة أكثر من الأحيان ، وحيثما وجد التجار والرحالون من العرب على شواطىء هذه الجزر فهناك مسلمون على المذهب الذى يأتمون به من مذاهب الأئمة الأربعة ، واذا كان الترك على الأغلب يأتمون بمذهب أبى حنيفة وكانت للعشائر التركية دولة فى الهند فالدولة لم تصل الى الجزر بسلطانها وقوتها بل وصلت اليها بالمسافرين من تجارها ومهاجريها ، ولهذا يوجد الحنفيون حيث وجد هؤلاء التجار والمهاجرون ويوجد الى جانبهم أتباع المذهب الشافعى الذين اقتدوا بالعرب القادمين من بلادهم غرباء بغير دولة ولا صولة تكره الناس على مذهبها فى شؤن العقيدة ، وهى أعصى الشؤن على الاكراه ٠٠ ومع هؤلاء وهؤلاء يوجد الشيعة حيث لم توجد قط دولة ذات سلطان تدين بمذهب من مذاهبها ٠ ولم يزد عدد العرب فى القرن التاسع

عشر على ثلاثين الفـــا في جميع جزر الارخبيل ، ولكن المسلمين يقاربون سبعين مليونا من أبناء البلاد الأصلاء وبعض الهنود ٠

وهذه البلاد من أغنى أقطار العـالم بالمحصـولات الزراعية ، ينمو فيها القصب والبن والشاى والأرز والبطاطس وتنبت فيهـا الأشجار التى تخرج الأصباغ المختلفة ومنها صمغ المطاط ، واشهر محصولاتها الأبازير والتوابل التى تهافتت عليها أوربة ومن أجلها حاول الرحالون في القرن الخامس عشر أن يصلوا الى منابتها من المغرب ، فانكشفت لهم القارة الأوربية على غير انتظار ، وسميت جزرها بجزر الهند الغربية لهذه الجزر التى كانت تعرف باسم جزر التى كانت تعرف باسم جزر الهند الشرقية ٠

لا جرم كانت قبلة المستعمرين الأول وصحبت الاستعمار من أول بعثاته الى عهده الأخير ٠

وأبناء هذه البلاد يتكلمون لغة واحدة هى لغة الملايا ، وشيوع هذه اللغة بينهم مع شيوع الاسلام هو الذى وحدهم وعودهم الشعور بقومية واحـــدة ، على الرغم من الجهود التى بذلت للتفرقة بينهم باحياء اللهجات الاقليمية وتشجيع « الأبجديات » التى تلائم كل لهجة منها ، ومن مفارقات الزمن أن الاستعمار قد زود هذه اللغة على غير قصـــد منه بالأبجدية اللاتينية التى رسمت لهـا كتابة واحدة لا يسهل تنويعها وتفريقها على حسب اللهجات فى معاهد التعليم الحديث ٠

جاءها البرتغاليون عند ختام القرن الخامس عشر ، ولم يعرفها الهولنديون الا بعد قرن كامل ، تم تبعهم الانجليز والفرنسيون ، وظفر الهولنديون بمعونة أبناء البلاد لأنهم جاءوهم بعد البرتغاليين فخالفهم الوطنيون للخلاص من هؤلاء واقصائهم عن أسواق المشرق ، وتكاثرت شركات التجارة الهولندية تنافسا على الربح الغزير الذى

استأثرت به الشركة الأولى ، فوحدت حكومة هولندة بين هذه الشركات وجمعتها الى شركة واحدة هى شركة الهند الشرقية الهولندية ، وقد تعاقدت هذه الشركة فى مطلع القرن السابع عشر مع مملكة بنتام على احتكار التجارة فى موانئها وأسواقها واعفائها من الضرائب وامدادها بالجند والعدة اللازمة لصد الشركات الأوربية الأخرى ، اذا أدى اغلاق الموانىء دون سفنها الى الاعتداء على بلاد المملكة ٠

ولما وفد التجار الانجليز على الجزر كان الهولنديون قد أسرفوا فى مطالبهم فرحب القوم بالانجليز وأعانوهم على الشركة الهولندية ، ولكن هذه لم تلبث أن عادت بقوة بحرية كبيرة وحاصرت الموانىء ومنعت خروج السفن منها ثم تغلبوا على جزيرة جاوة وافتتحوا عهد استعمارهم بانشاء مدرسة فى العاصمة « جاكرتا » تتبعها كنيسة واغتنموا فرصة النزاع بين الأمراء فضربوا بعضهم ببعض وكادوا ينهزمون لولا المعونة الوطنية التى أسعفتهم مرارا فى أشد أوقات الحاجة اليها ٠

الا أن التنافس التجارى بين المستعمرين قد اضطر الشركة الى التحول من التجارة الى الزراعة ، واضطرها التنافس كذلك الى الاكثار من بناء السفن الحربية والاستعداد بالأسلحة والذخائر ، ووقعت الحرب بين الدولتين الهولندية والانجليزية فكسدت تجارة الشركة ولجأت الى الاستدانة ونزلت على كره منها عن عقود الاحتكار التى اتفقت عليها من الوطنيين ، ثم احتلت فرنسا أرض هولندة فى أثناء الحرب الفرنسية الانجليزية فاستولى الانجليز على مستعمرات هولندة جميعا ، وآلت البلاد الى شركة الهند الشرقية الانجليزية حتى أوائل القرن التاسع عشر ، فسعى بعض الأمراء والمصلحين الى الحاكم الانجليزى لاقناعه بتوحيد الامارات الأندنيسية فى شبه ولايات متحدة تتولاها هيئة نيابية ٠٠٠ فلم يقبل مجلس الشركة فى

لندن هذا الاقتراح ! واستعاض عنه بالاكثار من الحكومات المحلية والغاء قوانين السخرة وتخفيف بعض الضرائب واحتكار تجارة الملح لتعويض خزانة الشركة عن الضرائب الملغاة ٠

ولما عاد الى هولندة استقلالها بعد انهزام نابليون أمام الجيش الانجليزى الهولندى فى وقعة « واترلو » طالبت بمستعمراتها المختلفة فردت لها ٠٠٠ وأظهر القادة العسكريون المسيطرون على تلك المستعمرات عصيانا « متفقا عليه » حتى تم الاتفاق بين الدولتين (سنة ١٨٢٤) على تسوية تحفظ لانجلترا جزءا من المستعمرات وتعيد سائرها الى الحكومة الهولندية ٠

وعادت الادارة الهولندية الى السخرة وزيادة الضرائب وحرمان البلاد من غلاتها ومحاصيلها فتعاقبت الثورات مع المجاعات والأزمات الاقتصادية ، وكاد السخط على الحكومة المستعمرة أن يعصف بها لولا استغلال الوقعية بين أمراء الممالك وتأليب صغارهم على كبارهم وانقياد صغارهم للدسيسة الأجنبية خوفا على سلطانهم المحدود من غلبة الأمراء الكبار عليهم ٠ ولم تهدأ هذه القلاقل الى فى السنوات الأولى من القرن العشرين ، ثم أذعنت هولندة كما أذعن غيرها من دول الاستعمار لمطالب النهضات الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى ، فاستجابت الشعب الأندنيسى الى بعض حقوق الحكومة الذاتية وقامت المجالس النيابية فى هذه البلاد لأول مرة فى ظل الاستعمار ٠

ويرجع فضل النهضة الوطنية الى يقظة المسلمين وتأسيس أول جماعة من جماعات الاصلاح باسم « شركة اسلام » وهى الجماعة التى انضوت اليها جماعات متعددة بعد ذلك باسم « مسجومى » ٠٠٠ كلمة منحوتة من « مجلس سجورو مسلمين أندنيسية » ٠

وأكثر القائمين بهذه الدعوة من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقراء تفسيره بمجلة المنار ، لأنهم استفادوا من تجارب الاصلاح السابقة على مقربة منهم فى الهند ، واتفق نشاطهم للاصلاح بعد توافر أسبابه فى ابان دعوة الأستاذ الامام بالديار المصرية ، وهى دعوة تعول على تعزيز الجامعة الاسلامية من الوجهة الثقافية ولا تشتد فى طلبها من الوجهة السياسية على طريقة جمال الدين ، وقد تمحصت التجارب خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر بعد حركة الجامعة الاسلامية الأولى وبعد حركة الخلافة فى الهند ، فأسفرت عن رجحان المنهج القويم الذى اختاره الأستاذ الامام رحمه الله ٠

٣ ـ الصين

ومسلمو الصين لهم تاريخ يتناقلونه عن السلف وتغلب عليه الصحة ، وانما يرجع الخطأ فيه الى تعديل التقاويم الصينية من حين الى حين ، بحيث تتسع فى بعض العصور لفرق عشرين أو ثلاثين سنة تزيد تارة وتنقص أخرى ، وعلى حسب التاريخ الذى يتناقلونه يكون الاسلام قد دخل الى الصين بعد الهجرة النبوية بقليل ٠ وقد هزم المسلمون الفرس والروم معا بعد الهجرة النبوية بجيل واحد فأرسل كلاهما الى الصين يستغيثون بابن السماء ويهولون له فى خطب هذا العدو الظافر ٠٠ ظنا منهم أن هذا التهويل يحفزه الى المبادرة باغاثتهم فى الطريق حرصا على حدود الصين ، فكان هذا العاهل أحذر مما حسبوه ، ودعته استغاثة الروم بعد استغاثة الفرس الى مسالمة هذه القوة الجديدة ، فأوفد رسله الى الخليفة عثمان وقابل الخليفة هذا التقرب بمثله وفد اليه بعثة قوبلت بالحفاوة والترحاب

وقبل أن يمضى قرن واحد على هذه الزيارات عرضت لبلاط الصين تلك المشكلة التى حيرت سفراء الغرب وقهارمة البلاط فى

مملكة ابن السماء بعد أكثر من عشرة قرون ، وحين اشترط ابن السماء على السفراء أن يتقدموا اليه راكعين وعز على هؤلاء السفراء أن يحيوه بتحية أكبر من تحياتهم لملوكهم • فان العاهل سوان تسنج غره ما سمعه عن اضطراب أحوال الدولة الاسلامية فجرد على تخومها جيشا كبيرا يريد أن يدحر به جيش قتيبة بن مسلم الرابض على تلك التخوم • فانهزم وأمر قتيبة الرسل الذين أنفذهم الى بلاط ابن السماء أن يعرضوا عليه الاسلام أو الجزية أو مواصلة القتال • فدخل هؤلاء الرسل على ابن السماء لأول مرة مترفعين عن السجود منذرين متوعدين ثم ما تالخليفة الوليد وقتل قتيبة وأجزل العاهل عطاء الجيش الاسلامي وأذن لهم بالبقاء فى بلاده ، فسموا باسم القبيلة الصينية التى كانت الى جوارهم ودانت بالاسلام مقتدية بهم ، وهى قبيلة هوى شوى ، ولا يزال المسلمون جميعا يعرفون باسم « هوى هوى » فى جميع بلاد الصين •

ويؤخذ من سجلات أسرة تانج أن الدولة كانت تمنح الأسر الاسلامية المقيمة فى « سيانفو » خمسمائة ألف أوقية من الفضة كل سنة ، وهو عطاء فرضته الدولة على نفسها مكافأة لهم على نجدتهم للعاهل « سو تسنج » الذى ثار به الجند بعد اكراه أبيه على النزول عن العرش ، فاستنجد بالخليفة العباسى أبى جعفر فأمده ببضعة آلاف جندى هزموا الثوار وأقروه على عرشه فاستبقاهم فى أرضه (سنة ٧٥٧) ••• ومن هؤلاء ومن سبقهم من جنود قتيبة تناسل المسلمون فى غرب الصين •

الا أن المسلمين قد دخلوا الصين من غير طريق الغرب ، ولم ينقطع تجارهم وسياحهم والملاحون منهم عن زيارة موانى الجنوب فى كانتون وما جاورها ، وأوغل بعضهم الى داخل البلاد من الجنوب والغرب والشمال مع القبائل الرحل فلم يخل منهم اقليم فى الأقطار الصينية على الاجمال ، ويسمى المسلمون فى الشمال العربى عند

قانصوه وشنسى بالتنجان أى المنتقلين الى الدين الجديد ، ويسمون في سنكيانج بالترك لأنهم من السلالات التركية فى التركستان ، ويسمون في يونان بالبنشـاى وهم من سلالة الترك والعرب وأهل الصين الأقدمين ، وليس هؤلاء جميعا من سلالة المسلمين الأولين ، من كان آباؤهم يبيعونهم فى أعوام المجاعة فينشأون بين المسلمين بل منهم أناس من أبناء الصين آثروا الاسلام اعجابا بأهله ، ومنهم على عقيدتهم ، ولم يحل تحريم المسلمين أكل الخنزير وتعاطى الخمر والمخدرات دون اجتذاب جيرانهم الى دينهم بالقدوة الحسنة والمعاملة المرضية والأمانة فى التجارة والزراعة ، فأسلم كثيرون بغير اكراه على قلة اكتراث الصينيين بالتحول من دين الى دين لأنهم لا يبالون ما يعتقدون اذا ترك لهم عبادة الأسـلاف ورعاية التقاليد فى الشعائر وآداب السلوك .

وقد شقى المسلمون فى الصين بحكم أسرة المانشو فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعلمت هـذه الأسرة الواغلة تاريـخ المسلمين فى نصرة الأسرة المخذولة فأشفقت من ثورتهم وتعلت لهم بالعلل التى تصطبغ بصبغة الدين لتنفير البوذيين منهم ، فحرمت عليهم ذبح البقر (سنة ١٧٣١) مع أنها تبيح ذبح الخنازير ، وظنت أنها ترضى بذلك طوائف البوذيين وترضى سائر أهل الصين الذين يبيعون الخنزير ويسرهم أن يضطر المسلمون الى أكله بعد تحريم لحوم البقر عليهم ، فثار المسلمون وتتابعت ثوراتهم وهزموا جنود الحكومة فى معارك كثيرة ومنها معركة فى التركستان الصينية قتل فيها ألفان وانتحر الوالى خوفا من القصاص (١٨٦٣) . وفى هذه الآونة استقل البطل التنجانى يعقوب بك بحكم التركستان وأوشك أن ينفصل بها وبالاقليم المجاور لها لو لا أنه مات فجأة (١٨٧٧) واختلف أتباعه وقادة جنده فتلاحقت بعده المذابح والثورات ، الى أن سقطت دولة المانشو وكان لثورات المسلمين فى الغرب والشمال أثر فى اسقاطها وتحريض الناقمين منها على مهاجمتها .

وقد أحس المستعمرون الشرقيون والغربيون وطأة الصينيين المسلمين في حروب تلك الدول مع الصين ، وكانت اليابان أول من تعرض لبأسهم فى حربها مع الصين (سنة ١٨٧٥) فخطبت ودهم وتقربت منهم جهرة وخفية ، ثم أوفدت سفراءها من أمراء البيت المالك الى دار الخلافة لتستميل اليها المسلمين الصينيين فى خصوماتها مع أسرة المانشو ومع الروس فى وقت واحد ، وكانت أسرة المانشو قد حرمت على المسلمين الاتصال بالعالم الخارج فتعذر عليهم أداء فريضة الحج ولكنهم كانوا يتحيلون على الخروج لأداء هذه الفريضة بمختلف الحيل ، فلما أحست بمساعي الدول بينهم وتسلل الدعاة اليهم من اليابان والروس والترك وحكومة الهند ضربت حولهم السدود وحظرت العودة على من يغادر منهم البلاد للحج أو لطلب العلم ، فنشأت بينهم عادة غريبة وهى عادة الحج بالنيابة ، وتوافد عليهم فقراء المسلمين من الأمم القريبة لينوبوا عنهم فى الحج بأسمائهم ، خوفا من النفى الدائم اذا غادروا البلاد بغير اذن الحكومة ، ولم تخل القيود من أثرها المحمود ٠ فانها ضاعفت عنايتهم بدراسة الدين وحفظ القرآن فكثر بينهم من يعرفون لغته ويقرأون بها قراءة المجتهد فى أرض معزولة عن الثقافة العربية ، وتعزى الى هذه الفترة نهضة التجديد بين مسلمى الصين الغربية ، وهى كسائر النهضات مقبولة عند فريق ، مستنكرة أو مشتبه فيها بين فريق المحافظين على كل قديم ٠

ولا يزال مسلمو الصين فى غمرة من جرائر الظلم الذى حاق بهم على عهد الأسرة المنشورية ، ولم يرتفع عنهم كثيرا بعد قيام الجمهورية ، ولكنهم على أية حال كانوا فى مطلع القرن العشرين قوة لا تهمل فى حساب أحد يعنيه أمر الصين كلها ، ولهذا جعلتهم الجمهورية عنصرا من العناصر الخمسة التى يقوم عليها بناء النظام الجديد ٠

أمم أخـــرى

تلك فى العالم الاسلامى أكبر الجماعات التى بقيت الى ختام القرن التاسع عشر فى حـــكم غيرهـا ، وهى جماعات كبيرة حتى بالقياس الى أكبر الجماعات من حولها ، اذ ليست الصين مثلا على عقيدة واحدة بملايينها الأربعمائة ، ففيها الطاويون والبوذيون وأتباع كفشيوس وطوائف شتى لا تقيم شـعائرها فى بيعة واحدة ، وقد تواترت الأدلة على الرغبة فى الاقلال من عدد المسلمين بين هؤلاء فى جميع الاحصاءات الحكومية وغير الحكومية ، ولم تتبدل هـذه الرغبة بعد اعلان الجمهورية ، فقال دكتور ليمان هوفر معتمدا على مراجع الحكومة العامة أن عددهم يتراوح بين سبعة ملايين وعشرة ، وكشف الأستاذ أحمد على الباكستانى عن خطأ هذا الاحصاء معتمدا على عدة مراجع منهـا دليـل الصين الرسـمى فى سـنة ١٩٤٣ ، فان تعداد سنكيانج وحدها فى ذلك الدليل ٤٫٣٦٠٫٠٢٠ وتعداد قانصـوه ٦٫٢٥٥٫٤٦٧ وتعداد شنسى ٩٫٧٩٩٫٦١٧ وكلهـا بلاد اسلامية أكثر من فيها مسلمون ، وهذا عدا مسلمى يونان وشنغهاى ونتغسيه وهم هناك قلة كبيرة ، وعدا المسلمين بوادى اليانجتسى وقد ذكر ولز وليامس احصاءهم فى كتابه الذى ظهر قبل خمسين سنة (١٨٨٣) فقدرهم بناء على ذلك الاحصـاء بعشرة ملايين ، ولا حاجة الى شواهد أخرى أو الى استقصاء سائر الأقاليم لاثبـات تلك الرغبة فى الاقلال من عدد المسلمين الصينيين ، فقد يرى بعضهم

أن الجماعة الاسلامية التى كان ولاة الأمر الصينيون يودون الاكبار من شأنها لم تذكر كل الحقيقة حين كتبت ـ باذن ولاة الأمور ـ أنها تمثل خمسين مليونا من الصينيين ٠

ووفرة العدد هنا لها شأنها الخطير فى قارة كالقارة الآسيوية يتقدم اعتبار العدد فيها اليوم على كل اعتبار ٠

وهناك شأن آخر لابد من الالتفات اليه فى كل كلام يتعلق بالجغرافية الاسلامية ، فلا يخفى أن البلاد الاسلامية تبتعد عن شواطئ البحار بتدبير أو بغير تدبير ، وذلك مصدر ضعف لها فى بعض المواقع ومصدر قوة لها فى المواقع الأخرى، فالمسلمون فى وسط آســـيا قوة لأنهم هنـــاك ميزان القارة الداخلية لا يتم أمر من الأمور فى سياسة العالم التى ترتبط بتلك المواقع ان لم يحسب فيه حسابهم قبل كل حساب ، ولكنهم فى الجزر الهندية الشرقيه يملكون الشواطئ فلا يهمل شأنهم فى كل سياسة عالمية لها علاقة بحرية ، وهم فى الباكستان شرقا وغربا يتوسطون البر والبحر ، فلا تنفصل سياسه القارة الآسيوية بعد النظر الى هذه الاعتبارات كافة عن سياسة الاسلام ٠

وتعاصر هذه الجماعات الاسلامية الآسيوية أمم شتى لا تساويها فى العدد ولكنها ملحوظة المكانة والمكان لغير ذلك من الاعتبارات ، وفى طليعتها وادى النيل والبلاد العربية ٠

وادى النيـــل

فوادى النيل قضى القرن التاسع عشر كله ـ اسما ورسما ـ في حوزة الدولة العثمانية ، ولكنه كان قبل قيام الدولة العثمانية وبعد انحسار ملكها محور العالم الاسلامى ، لجملة أسباب تدور على الدين تارة وعلى السياسة أو الثقافة تارة أخرى ٠

فقد كانت القاهرة تحسب عاصمة الاســـلام ، وكان ملوك الافرنج يخاطبون سلطانها باسم أمير الاســلام اذا انتحل أحدهم لنفســه لقب الامارة على المسيحيين ، وكانت مصر طليعة الجيوش الاسلامية فى مقاومة الصليبيين وبيت القدس تابع لها فى أيام تلك الحروب ، ومضى زمن على العالم الاسلامى فى القرون الوسطى وهو لا يعرف قبلة لعلوم الدين أولى بالرحلة اليها من الجامع الأزهر ، وعظمت مكانتها أمام الغرب بعد الحروب الصليبية فى عهد الاستعمار وفى عهد المسألة الشرقية ، فكان الفيلسوف الألمانى « ليبنتز » يغـرى لويس الرابع عشر بفتح مصر للقضــــاء على المستعمرات الهولندية ويقول له ان هولندة لا تجسر حينئذ على معاداته لأنهـا تجر عليها غضب العـالم المسيحى اذا حاربته وهو مشغول بفتح معقل الاسلام ، ولما فكرت الدول فى أمر قناة السويس كان المركيز دار جنســون Dargenson يروج للمشروع من الناحية الدينية فيقول انه فتح صليبى لجميع المسيحيين ٠

وشاءت الحوادث ، كما شاء حكم الموقع ، أن تسبق مصر بلاد العالم الاسلامى الى الحضارة الحديثة ، لأنها تنبهت الى مزايا هذه النهضة عند وصول الحملة الفرنسية اليها بقيادة نابليون بونابرت قبيل ابتداء القرن التاسع عشر ، وكانت فى حقيقتها حملتين : حملة عسكرية وحملة علمية يشترك فيها جلة العلماء من المختصين الثقات فى كل علم حديث .

ويعتبر القرن التاسع عشر فى مصر بمثابة الأزمة النفسية التى تصاحب سن الرشد فى بواكير الشباب ، فاعتلجت فيها النفس المصرية بتجارب النكسة والتقدم وعوامل الأسر والحرية ، واستهلت أمة مصر سنواته الأولى بحركة من حركات الاستقلال تمثلت فى اجماع القادة على عزل الوالى العثمانى وترشيح وال يختارونه ليخلفه على شرطهم من الاستقامة فى الحكم والتعفف عن الحرمات والأموال ، فتولى الأمر « محمد على » ولجأ الى النظم الحديثة فى ادارة الدولة وتثمير الأرض والانتفاع بماء النيل ، ولولا اسرافه فى العدة لتوسيع ملكه لأدركت البلاد أضعاف ما أدركته من المنعة والتقدم بعد القضاء على عصابة المماليك .

وقد استفادت مصر فى هذا القرن من الحضارة الأوربية وأوشكت أن تخلص لها فوائدها لولا بقايا الامتيازات الأجنبية وأثقال الديون وشطط الولاة وعجزهم من أيام عباس الأول الى أيام توفيق ابن اسماعيل ، وفى عهد هذا تفاقمت بواعث السخط والنقمة فثارت الأمة تطلب الاصلاح وتعالج أن تفك قيودها بتقييد سلطان الولاه ، فتذرعت بريطانيا العظمى باختلال الأمن فى مصر لضرب الاسكندرية واحتلال القطر كله ، ولم تنس أن تثير العصبية والطمع فى الغرب بدعوى حماية المسيحيين وحراسة حقوق أصحاب الديون ، ولم يحدث قط أن مسألة الديون سوغت احتلال شبر من الأرض

فى أوربة أو أن اضطهاد المخالفين فى الدين ضيع استقلال أمة من غير الشرقيين ·

وكان القرن التاسع عشر كما أسلفنا بمثابة الأزمة النفسية التى تصاحب سن الرشد فى بواكير الشباب ، فحدثت فيه نكبة الاحتلال الأجنبى وحدثت فيه قبل الاحتلال وبعده نهضة الحرية فى وجه الدولة صاحبة السيادة وهى الدولة العثمانية ، وفى وجه حكام مصر وهم سلالة محمد على ، وفى وجه السيطرة الفعلية وهى سيطرة المستعمرين ، ويحسن بالمؤرخ الذى يعنيه الاستقصاء فى النهضات الفكرية على الخصوص أن يقرر فى ثقة ويقين أن العصبية العمياء لم تكن قط عاملا فعالا فى حوادث مصر الهامة · فقد كان شعور مصر اسلاميا كلما أحس العصبية من الغرب فى عدائه للأمم الاسلامية · ولكن الهتاف بالسخط على « العثمانلى » كان على لسان الخاصة والعامة ، يدل عليه أن جماهير العامة كانت تنادى فى أواخر أيام المماليك مستنجدة بالمتولى لهلاك العثمانلى ، وكان هتافها الذى لا يعقل أن يصدر من غير العامة « يا متولى يا متولى · تخرب بيت العثمانلى » ··· وبعضهم يتعلم ويتخرج فيستبدل المتجلى بالمتولى ، وهو ما جرى مجراه مسطور فى تواريخ مصر بأقلام المصريين والأجانب ، وأقلام المسلمين وغير المسلمين ·

أما الخاصة فمنهم الحزب السياسى الذى نادى « بمصر للمصريين » قبل نهاية القرن التاسع عشر بعشرين سنة ، وعلى رأسهم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده أستاذ رجال الدين من المصلحين ، وأحد أصدقائه وتلاميذه سعد زغلول قائد الثورة بعد الحرب العالمية الأولى وكان وكيلا للهيئة النيابية التى تألفت فى أوائل القرن العشرين باسم « الجمعية التشريعية » وأثبتت أن الجماعات النيابية تنال منزلتها ومقدرتها على قيادة الأمم بفضل من فيها من الأعضاء لا بمقدار ما لها من الحقوق فى النصوص والأحكام·

البــلاد العربيــة

ومن تاريخ الاصــلاح الاسلامى فى جزيرة العرب يبدو أن الاصلاح فى العالم الاسلامى يخلق حيث توافرت دواعيه على حسب البيئة ، فهو سابق فى المجتمعات التى تدور فيها المعيشة على بساطة البداوة وما شابهها ، وهو كذلك سابق فى المجتمعات الحضرية التى تشعبت جوانبها وتركبت عناصرها فلا يصلح لها ما يصلح للبداوة ، وكل ما هنالك أن الاصلاح فيها يتأخر به الزمن لأنه يستلزم من الدواعى العلمية والاجتماعية ما لم يكن لزاما فى البيئات البدوية .

فالنهضــة فى مصر بدأت عند أوائــل القــرن التاسع عشر ولكنها بدأت فى الجزيرة العربية قبل ذلك بنحو ستين سنة بالدعوة الوهابية التى تنسب الى الشيخ محمد عبد الوهاب ، وبدأت نحو هذا الوقت فى اليمن بدعوة الامام الشوكانى صاحب كتاب « نيل الأوطار » ، وكلاهما ينادى بالاصلاح على نهج واحد : وهو العود الى السنن القديم ورفض البدع والمستحدثات فى غير هوادة ، وانما تسامع الناس بحركة الشيخ محمــد بن عبد الوهاب وظلت الدعوة الشوكانية مقصــورة على قراءة كتب الفقه والحديث لأن الوهابيين هدموا القبــاب والأضرحــة فى الحجاز واصــطدموا بجنود الدولة العثمانية فى ابان حربها مع الدول الأوربية التى اتفقت على تقسيمها ، ومثل هذا الاصطدام قد أودى بدولة على بك الكبير فى مصر فانقض

عليه أعوانه وتمكن منه حســـاده بعد محالفته لروسيا فى حرب الخلافة الاسلامية ٠

ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثا فى الجزيرة العربية ولا فى أرجاء العالم الاسلامي من مشرقه الى مغربه ، فقد تبعه كثير من الحجاج وزوار الحجاز وسرت تعاليمه الى الهند والعراق والسودان وغيرهــا من الأقطار النائية ، وأعجب المسلمين أن سمعوا أن علة الهزائم التى تعاقبت عليهم انمــا هى فى ترك الدين لا فى الدين نفسه ، وأنهم خلقاء أن يستجدوا ما فاتهم من القوة والمنعة باجتناب البدع والعودة الى دين السلف الصالح فى جوهره ولبابه ٠

أما سياسة الاستعمار فلم يفتها فى هذه المرحلة أن تستغل التمرد على الدولة العثمانية كما تستغل التنازع بين أمراء الجزيرة فى داخلها وعلى شواطئها ٠ فسارعت بريطانيا العظمى الى التعاقد مع أمراء الشواطىء على نوع من الحماية الخفية ، وأحكمت عقودها هذه بعد فتح قناة السويس ومد السكك الحديدية الى العراق ، فلم ينقضى القرن التاسع عشر حتى كانت قد أحاطت الجزيرة العربية بحلقات من هذه الامارات التى تخضع لهــا وتعمل لهــا فى السر ما لا تستطيعه فى العلانية ٠

الهــلال الخصيب

والهلال الخصيب وسط بين مصر والجزيرة العربية فى نهضة الاصلاح الدينى ومجاراة الحضارة الحديثة ، فالمسلمون فى بلاد الهلال الخصيب يشعرون بالحاجة الى التغيير ولكنهم لا يلتمسونه فى بســاطة القديم ولا تتوافر لهم الوسائل لالتماســه فى العلوم الحديثة ، وتقيدت أحوالهم بأحوال الدولة التركية فتعلم منهم من تعلم فى المدارس التركية وقدم بعضهم الى الجامع الأزهر بمصر أو تلقى العلم على منهاجه من علماء بلده ٠

ولما تسابقت الدولة الغربية الى فتح المدارس فى لبنان وسورية لم يقبل عليها المسلمون لاعتقادهم أن التعليم فيها وسيلة للتبشير ، وهو أمر لا يخفيه رؤساء تلك المدارس بعد انقضـــاء جيلين على افتتاحها ، ومنهم رئيس جامعة كبيرة يقول ان التعليم خير الوسائل فى التبشير والتنصير ٠

ومن خدام الاستعمار طائفــة تمهد له بخدمة اللغــة العربية تشجيعا لثورة العرب على دولة الخلافة ، واحتيالا على نفث بعض المغامز فى طيات الكتب التى تنشرها ، وان خدام اللغة هؤلاء لشاهد من شواهد شتى على أن العلم لا يخلو من الخير وان ساءت النية عند ناشريه ٠

وجملة الحال فى بلاد الهلال الخصيب عند أواخر القرن التاسع عشر أنها تتقدم فى نهضة اسلامية تتوسط بين منهج محمد بن عبد الوهاب ومنهج محمد عبده ، وأن هذه النهضة يمتزج فيها طلب الحرية وطلب التجديد كأنها جيش ذو جناحين يذهب الجناح السياسى منهما بعيدا ويصطنع الجناح الدينى شيئا من الأناة والمحافظة ٠

وفي داخل هذا الهلال الخصيب فرق من المسلمين كالمتاولة والدروز يحسبون من غلاة الشيعة ويذهبون الى أقوال فى مسألة الحلول ومسألة الامامة يخالفهم فيها السنيون والشيعة المعتدلون ٠٠٠ وتكاد كل فرقة منهما أن تنطوى على عزلتها ، الا أفرادا منهم يقصدون الى معاهد العلم الحديث فى لبنان ومصر والديار الأوربية ٠



أفريقيــة الشــمالية

أما فى أفريقية الشمالية فقد احتلت فرنسا الجزائر فى سنة ١٨٣٠ واحتلت تونس فى ســنة ١٨٨١ وسلكت فى كل منهمــا السياسة التى تبصر من لا يبصر بأساليب الاستعمار ســواء منه ما ينتحل المبادىء الديمقراطية أو ينتحل الدعوة الدينية ٠

فنابليون الثالث قد منح المسلمين فى الجزائر حقوقا كحقوق المواطنة ، وهو عاهل مطلق اليدين ٠٠٠ ثم جاء غمبتا داعية الحرية فحرم المسلمين هذه الحقوق وضاعفها لليهود ٠

وحــكومة فرنســا وهى تنادى باعتزالهــا للدين تضــع فى « الميزانية » التى عجزت مواردها عن مصروفاتها بابا واسعا لمعونة المبشرين فى أفريقية الشــمالية ، ويعلن وزيرهــا فى البرلمان أن « السياســة اللادينية » تقف عند حدود فرنسا ولا تتخطاها الى المستعمرات ٠

وقد ابتدأ القرن العشرون فى الجزائر وتونس بنهضــــة من نهضات التقدم يستعجلها المجددون ويستمهلها المحافظون ، ولم يبق من المحافظين فى نهاية القرن التاسع عشر من يحرم الدستور لأنه بدعة مستمدة من الشرائع الغربيــة ، ولكن أنصار القديم مع هذا يتحرجون مما يتوسع فيه أنصار التجديد ٠

وتم احتلال المستعمرين لأفريقية الشمالية باحتلال طرابلس في سنة ١٩١١ فكانت الغنيمة هذه المرة من نصيب الايطاليين ، وسمعت في ايطاليا قبيل الزحف على طرابلس أناشيد « الصليبية » في نغم جديد ، ولكنها سمعت أيضا بعد ذلك بزهاء ثلاثين سنة تمجيدا لغزوة الحبشـــة وابتهاجا بتخليص أثيوبيـة القديمة من « الهمج » الذين دنسوا دين المسيح !

مسلم الحبشة

ومن أكبر المجاميع الاسـلامية فى القارة الأفريقية مسلمو الحبشة وعدتهم مع المسلمين فى الصومال وأريترية لا تقل عن ستة ملايين ٠

وتجمع التواريخ التى كتبها الشرقيون والغربيون عن الحبشة فى القرن التاسع عشر على سوء حالهم واضطهادهم ، وقد أمر أحد ملوكهم يوحنا بتنصير سكان الحبشة جميعا ومنهم المسلمون ، وجاء فى احدى الرسائل التى كتبها جوردون الى أخته « أن يوحنا ـ ويا للعجب ـ شبهنى تعصبا للدين وله رسالة سينجزها ، وهى تنصير جميع المسلمين » (١) ٠

وقد أشار ترمنغهام فى كتابه عن « الاسلام فى الحبشة » الى أعمال يوحنا هذا فقال فى صفحة ١٢٢ « ان بعض المسلمين تحولوا الى بلاد الغالا أو المنخفضات الاسـلامية أو البلاد الوثنية حيث ينشرون دينهم ، وبعضهم تنصر ولكنه تنصر لا يعنى لديهم الا القليل ، اذ كان مقصورا على التعميد وأداء العشر ، وقد قال الكاردينال ماسيا Massaia انه رأى بعينه أناسا منهم يخرجون

---

(١) صفحة ١٥٥ من رسائل جوردون التى طبعت سنة ١٩٠٢ ٠

من الكنيسة التى عمدوا فيها الى المسجد ليزيلوا أثر العمادة على يد الامام » (١) ٠

وبعد أن قتل هذا الملك فى حربه مع الدراويش حسنت أحوال المسلمين بعض الشىء ولكنهم تعرضوا لمظالم شتى يذكرها السياح من الأوربيين كما ذكرها السياح الشرقيون فى كتب الرحلات الحديثة ٠

---

(١) Islam in Ethiopia by Trimingham.

الســـودان

ونريد بالسودان هنا جملة الأقطار الأفريقية التى يقطنهـا الزنــوج ··· وفيه مســلمون فى جماعات قليلة أو متفرقون بين بواديه وقراه ·

وموقف الحكومات الأجنبية فى أقطار هذا السودان جميعا هو موقف المقاومة كما يؤخذ من تقارير المبشرين والسياح من الأوربيين ، وقد تمنع هذه الحكومات رسالات التبشير من دعوة المسلمين الى النصرانية ولكنها تيسر لهم عملهم كل التيسير فى بلاد الوثنيين ، فتبيح لهم الســفر الى أقصى الجهات وتحرمه على الجلابة والفقهاء وأصحاب الخلوات (١) ·

وعقب ترمنغهام على هذا فى كتابه عن محـاولة المسيحية مع تدخل فى المذهب الانجيلى قريبا فهى حتما صائرة الى الاسلام » ·

وعقب ترمنغام على هــذا فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الاسلام فى السودان فقال فى صفحة ٣٨ « ولكن هذا الخطر قد زال الآن » ·

ويفهم من كتاب السودان المتغير The Changing Sudan تأليف ولسون كاشى Wlsen Kash رائد أرسلته مصر الى أعالى النيل فى القرن التاسع عشر بايعاز من الدول الا كان من رواد التبشير على وجه من الوجوه ·

---

(١) صفحة ٢٤٨ من كتاب « الاسلام فى السودان » ·

التبشير على الاجمال

وبعد هذه الخلاصة العاجلة عن موقف الاسلام من الاستعمار فى القرن التاسع عشر على الخصوص ـ نوجز الموقف الذى يقفه منه جماعات التبشير بعد تجربة قرن كامل فى مختلف الأقطار ٠

فالتقارير التى كتبها رسل التبشير مجمعة على صعوبة تحويل المسلم عن معتقده الى دين آخر ، وأكثر هؤلاء المبشرين تابعون لكنيسة رومة أو للكنيسة الانجيلية ٠ ومنهم من يجتهد فى تحويل المسيحيين الشرقيين الى مذهبه لأن التحول من مذهب الى مذهب فى ديانة واحدة أيسر من التحول من ديانة الى أخرى ٠

وربما شجر النزاع بين المبشرين من المذهبين فى أواسط أفريقية وفى الشرق الأقصى من آسيا ، وربما انتهى أمرهم جميعاً بين المسلمين الى الكف عن الدعوة والاكتفاء بالقدوة والتعليم على أمل النجاح بهما حيث أخفقت الدعوة الصريحة كما ذكر داعيتهم الكبير ترمنغهام فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الاسلام فى السودان ٠

وجملة الموقف الآن أن جماعات التبشير قد فرغت أو كادت من اتخاذ الاسلام هدفا لدعوة التنصير ، وهى تنظر اليه الآن نظرتها الى منافس خطر فى بلاد الوثنيين من الآسيويين والأفريقيين ، واذا أمنت خطره فقد تستريح اليه للتعاون على مقاومة الدعوة الى المذاهب

الهدامة أو مذاهب الالحاد ، وبخاصة فى البلاد التى تصطدم لديها الكتلتان الشرقية والغربية ·

ويبدو لنا أن هذه الجماعات فى الشرق انما تطيل رسالتها لاستبقاء الاتاوات المخصصة لها فى بلادها ، ولو كان بقاؤها على قدر نجاحها فى التبشير لعدلت عنه منذ عهد بعيد · -

ولكن هذه الجماعات التى تمدها الاتاوات والحبوس من بلادها تتخفى بغرضها المدخول وراء كل غرض ظاهر من التعليم أو التطبيب أو الاحسان · ولها أساليب ملتوية لمحاولة التأثير ، نذكر منهـا أسلوبا صغيرا اختبره كاتب هذه السطور فى تشجيع بعض ذوى الأقلام وغمط الآخرين ممن يحذرون خدمتهم الثقافية ، فلا يخفى على أحد فى الشرق العربى أن كل ترتيب للكتاب العشرين الذين تشيع كتبهم بين قراء العربية لابد أن يرد فيه اسم كاتب هـذه السطور فى آخر القائمة على الأقل ان لم يرد فى أولها ، ولكن احدى هذه الجماعات زعمت أنها تعنى بترتيب الكتب العربية التى تقرأ فى الشرق فلم يأت بينها ذكر لكتاب واحد ألفناه ، ولم تصنع شيئا بهذا السفساف الا أن تدل على النية المدخولة والتواء الأسلوب ··· ومن دلالة كهذه يظهر ما وراء هـذه الجماعات من الغرض ، وان ابتعدت عنه فى الظاهر غاية الابتعاد ·

الدعوات ونهضات الاصلاح

أتى على الأمم الاسلامية حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا .

حرمت العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ، وهى عدة الأمم فى تنازع البقاء .

والويل للأمم التى تحرم هذه العدة فى الحالتين .

الويل لها اذا أحست نقصها ، والويل لها اذا غفلت عنه ولم تفطن لمصابها .

فان احساسها بالنقص فى جميع هذه العدد يذلها وييئسها ويهون عليها الخضوع لغيرها والاستسلام لسوء مصيرها .

أما الغفلة عن النقص فهى أشد عليها من الاحساس به ان كانت هناك حالة أشد من حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ، لأنها تزيد عليها حرمانا آخر لا تزال له بقية فيها ، وهو الحرمان من محاولة التبديل ، ان كان للمحاولة سبيل .

ويحدث فى بعض هذه الأحوال أن تتماسك الأمة بعض التماسك لاعتصامها بكبرياء الجنس أو بكبرياء الدم والسلالة ، وهى كبرياء تخامر النفوس بغير حجة وتداخل الجاهل مداخلة العارف أو أشد وأقوى .

فالجنس الأصفر ينظر الى الأمم الأخرى كأنها الغريب المتطفل على العالم لأن أوطانها فى عرفها هى مركز العالم ومحوره ، فلا محل فى خارجه لغير المتطفلين المشردين ·

والجنس الأسود يعيب على جميع الأمم أنها لا تأخذ بعاداته ومراسمه ، واليونان الأقدمون كانوا يحسبون الناس ما عداهم فى زمرة واحدة هى زمرة البرابرة ، والمصريون يحسبون الناس واليونان منهم أجلافا مستوحشين ، والعرب يسمون غيرهما عجما ، والعجم يأنفون من عيشة الصحراء كأنها مسبة لمن يقبلها ومسبة لمن يفضلها على غيرها ·

وكان للأمم الاسلامية أن تلوذ بهذه الكبرياء لولا أنها تنتمى الى جميع الأجناس ، وقد تنتسب فى رقعة واحدة الى البيض والسود والصفر كما تنتسب الى الآريين والساميين والحاميين ، وأعلم من فيها يعلم أنه لا فضـــل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى ·

ففى هذه المحنة التى مرت بالأمم الاسلامية فى عصر الاستعمار لم تكن لها غير عصمة واحدة : وهى عصمة الدين ·

عصمها لأنها لم تهلك هلاك الأمم التى حرمت مقومات الحياة وعدد الكفاح فاستسلمت ويئست وأيقنت أنها أقل من سائر الأمم فى جميع الصفات وأنها محتاجة من تلك الأمم الى كل شىء ·

وعصمها لأنها لم تهلك هلاك الأمم التى تجهل حاجتها وتغفل عن نقصها ، لأن نزولها منزلة العبودية كاف وحده لتعريفها بتبدل حالها وقبولها ما ليس ينبغى أن تقبله وتستقر عليه ·

بقى لها شىء يوحى اليها أنها ليست ضائعة محرومة من كل شىء بعد حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ·

ولم يكن هذا الشيء كبرياء الجنس العمياء أو كبرياء الحيوانية في الانســان ، بل كان شيئا يليق بالانسان لأنه منوط بأشرف مزاياه وهي مزية الضمير والوجدان ·

بقى لها الايمان بدينها ·

بقى لهـــا الايمان بأنهـــا في حالة لن تدوم ، وأنها قمينة أن تغيرها لو غيرت ما بنفسها ، وأن الله يريد منها هذا التغيير ويعينها عليه ·

ولم يزل الاسلام منذ كان يعلم المسلم أنه مطالب بعلم الدين وعلم الدنيا ، وأن نبي الاسلام ـ فضلا عمن هو دونه ـ قد يقول لمن يهديهم انكم أعلم بأمور دنياكم ·

وانحلت المعضلة الكبرى على هذه الصورة التي لا صعوبة فيها على النفس المسلمة ، ففي وسع الدول المستعمرة أن تتغلب بسلاحها ، وفي وسع الأمم الاسلامية أن تدفعها بمثل ذلك السلاح اذا ملكته ، وعليها أن تملكه بأمر دينها ·

هذه العصـــمة هي سر العقيدة الوافيـــة الذى تلوذ به حين تخذلها كل عصمة ، وهو قيمة حقيقية لا تفرط فيها أمة متى وجدتها ولا يكون التفريط فيها الا علامة على الوهن والانحلال ·

ولم تشـــعر الأمم الاســـــلامية بمثل هذا الشعور قبل عصر الاستعمار ·

لم تشعر به في عهد الحروب الصليبية لأنها خرجت منها وهي مالكة لبلادها منفردة بانتصارها وارتداد المغيرين عليها ·

ولم يكن ثمة فارق في عدد القتـــال بينهـــا وبين الصليبيين فيدخلَ في روعها أنها مطالبة باقتباسه مفتقرة اليه ·

ولم يكن فى أحـــوال الصليبيين ما تغبطهم عليه ، بل كان الأكثرون منهم على حالة يترفع عنها بنو الحضارة ويحسبونها من التخلف والهمجية ٠

أما صـــدمة الاستعمار فلم تكن من هـــذا القبيل ، ولم تكن بالصدمة العابرة التى تمر فى ساعتها ولا تترك بعدها عبرة للمعتبر ولا أثرا للمتأثر ، بل كانت هى الصدمة الماثلة أمام كل نظر ، الملحة فى كل حين ، المتجددة فى كل جهة ، المعاودة على نحو واحد فى جميع الأقطار وعلى اختلاف التجارب والأحداث ٠

وقد تقدم فى خلاصـــة أحداث القرن التاسع عشر أن هزائم تركيا وايران ومراكش ومصر كانت هى نقطة التحول فى تواريخ تلك الأمم ، وأن الجامدين على القديم لم يؤمنوا بضرورة التحـــول الا بعد هزيمة من هذه الهزائم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير ٠

وسيتبين من « رد الفعل » الذى أعقب هذه الهزائم أن « العالم الاسلامى » لم يزل بنية حية تستجيب للمؤثرات وتستبقى منها ما صلح وأجدى ٠

وتلك هى العلامة الصادقة على كل بنية حية ٠

علامتهـــا أن تستجيب للمؤثرات وأن تعالجهـــا بمـــا يصلـــح ويجدى ، فلا يبقى فى البنية عارض من حقه أن يطرد وينفى ٠

ان رد الفعل الذى أعقب الهزائم أمام الاستعمار قد تنوع بكل نوع يخطر على البال ، فكانت منه الدعوة الى معاودة القديم على قدمه ، وكانت منه الدعوة الى البدعة التى لم تسبقها سابقة ، وكانت منه الدعوة الى حفظ الأصول واقتباس الجديد على توافق واتصال ،

وكانت منه الدعوة الغالية والدعوة المعتدلة ، فلم تستبق البنية الحية من جميع هذا الا ما هو جدير بالبقاء ، ودلت البنية الحية بذلك على نصيبها من الحياة ٠

وسنعلم الأصلح من هذه الدعوات فى خلاصة سريعة لما أرادته ولما حققته ولما تركته بعدها غير قابل للتحقيق أو قابلا له على مدى من الزمن قد يقصر وقد يطول ٠

الدعـوة الوهابيـة

كان أول هذه الدعوات فى تاريخ ظهورها دعوة الشـيخ محمد ابن عبد الوهاب الذى ولد فى أوائل القرن الثـانى للهجـرة ببلدة العينية من نجد فى جزيرة العـرب ·

وسبق هذه الدعوة فى تاريخها يرجع الى بساطة المجتمع الذى ظهرت فيه والى ابتعاده فى داخل شبه الجزيرة عن عـوائق الحياة العصرية بين الأمم الاســـلامية الأخـــرى التى تختلط فيها عوامل السياسة والاجتماع ·

وقد ترجم له المولى محمود الألوسى صاحب تفسير روح المعانى وهو بعض مريديه فقال انه « ابن سليمان بن على بن محمد بن أحمد ابن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاض ابن ريس بن زاخر بن محمد بن على بن وهيب التميمى النجـــدى صاحب الدعوة المشهورة » ·

قال : « وقد نشأ الشيخ محمد فى بلد العينية من بلاد نجـــد فى حجر أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضى فى بلد العينيـة فى زمن امارة عبد الله بن محمدبن حمد بن عبد الله بن معمر المشهور صاحب العينية التى تزخرفت فى أيامه · وذلك قبل انتقال الشـيخ عبد الوهاب الى بلد حريملة من بلاد نجد · فقرأ الشيخ محمد على

أبيه الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وكان الشيخ محمد فى صغره كثير المطالعة لكتب التفسير والحديث والعقائد ، فصار ينكر على أهل نجد كثيرا من الأمور فلم يسعفه على ذلك أحد وان استحسن انكاره بعض الناس ، فسافر من بلده العينية الى حج بيت الله الحرام فلما قضى نسكه صار الى المدينة فأخذ فيها عن الشيخ العالم عبد الله بن ابراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد المجمعة المعروفةفى ناحية سدير من نجد ، والشيخ عبد الله هو والد الشيخ ابراهيم مصنف كتاب ، العذاب الفائض فى علم الفرائض »٠

وروى الآلوسى فى الهامش أن محمد بن عبد الوهاب كان عنده يوما فقال له : تريد أن أريك سلاحا أعددته للمجمعة ؟ قال محمد بن عبد الوهاب : نعم ٠ قال : فأدخله منزلا فيه كتب كثير فقال : هذا الذى أعددت لها ٠

ثم استطرد الألوسى فقال ان الشيخ محمد بن الوهاب أنكر استغاثة الناس بالنبى صلى الله عليه وسلم عند قبره ، ثم رحل الى نجد ثم الى البصرة يريد الشام ، فلما ورد البصرة أقام فيها مدة وأخذ على العالم الشيخ محمد المجموعى من أعلى المجموعة محلة من محال البصرة ، فأنكر أيضا أشياء كثيرة على أهل البصرة فاحس الناس به فآذوه وأخرجوه وقت الهجيرة ، ولحق بعض الأذى الشيخ محمد المجموعى أيضا لمؤاتاته للشيخ محمد ٠ فلما خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب هاربا من البصرة وتوسط الطريق فيما بين البصرة وبلد الزبير فى وقت الصيف فى شدة الحر وكان ماشيا على رجليه كاديهلك من شدة العطش فوافاه رجل من أهل بلد الزبير يسمى أبا حميدان ووجده من أهل العلم فسقاه الماء وحمله على حماره حتى أوصله الى بلد الزبير ٠ ثم ان الشيخ محمدا أراد السفر الى الشام فضاق زاده فانثنى عزمه عن الشام فقصد الاحساء فنزل بها عند الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى الاحسانى ثم خرج من الاحساء وقصد بلد حريملة من نجد ، وكان أبوه الشيخ

عبد الوهاب قد انتقل اليها من بلد العينية سنة تسع وثلاثين ومائة وألف بعد وفاة عبد الله بن معمر صاحب العينية فى الوباء الذى وقع بها فأفناها ، وتولى فيها بعده ابن ابنه محمد بن حمد الملقب بخرفاش ، فوقع بينه وبين الشيخ عبد الوهاب منازعة فعزله عن قضاء العينية وجعـــل مكانه أحمـــد بن عبد الله بن عبد الوهاب ابن عبد الله النجدى قاضيا ، فانتقل الشيخ عبد الله الى بلد حريملة ، ولما وصل الشيخ محمد الى بلد حريملة لازم أباه وقرأ عليه وأظهر الانكار على أهل نجد فى عقائدهم فوقع بينه وبين أبيه منازعة وجدال وكذلك وقع بينه وبين الناس فى بلد حريملة جدال كثير فأقام على ذلك مدة سنتين حتى توفى أبوه الشيخ عبد الوهاب ســنة ثــلاث وخمسين ومائة وألف ٠

ثم أعلن الشيخ محمد بالدعوة والانكار على الناس ، وتبعه أناس من أهل حريملة واشـتهر بذلك ، وكان رؤســـاء بلد حريملة قبيلتين أصلهما قبيلة واحدة وكل منهما يدعى الرئاسة ، وليس فى البلد رئيس يحكم على الجميع ، وكان لاحدى القبيلتين عبيد يقال لهم الحميان وهم أهل الفساد ، فأراد الشيخ محمد أن يمنعهم من فسقهم وفجورهم ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، فهم العبيد ليــلا بقتل الشيخ محمد خفية ، فلما تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس فصاحوا بهم ، فانتقل الشيخ محمد من بلد حريملة الى العينية ورئيسها يومئذ عثمان ابن حمد بن معمر ، فتلقاه بالقبول وأكرمه وحاول نصرته وقال لعثمان : انى أرجو ان أنت قمت بنصر (لا اله الا الله) أن يظهرك الله وتملك نجدا وأعرابها ، فساعده عثمان فأعلن الشيخ محمد بالدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وشدد فى النكير على الناس فتبعه بعض أهل العينية وقطع أشجارا كانت تعظم فى تلك النواحى وهدم قبة قبر زيد بن الخطاب رضى الله عنه عند الجبيلة فعظم أمره فبلغ خبره الى سليمان بن محمد بن عزيز الحميدى صاحب الاحساء والقطيف وما حوله من العربان ، فأرسل

سليمان كتابا الى عثمان وكتب فيه : ان المطوع الذى عندك قد فعل ما فعل وقال ما قال فاذا وصلك كتابى فاقتله ، فان لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا فى الاحساء وكان خراجه ألفا ومائتين ذهبا وما ينبعها من طعام وكسوة ٠

فلما ورد الكتاب الى عثمان لم تسعه مخالفته فأرسل الى الشيخ محمد وأخبره بكتاب سليمان وقال له : لا طاقة لنا بحرب سليمان ، فقال الشيخ محمد : انك ان نصرتنى ملكت نجدا ، فأعرض عنه عثمان ٠ وأرسل اليه ثانيا أن سليمان قد أمرنا يقتلك فى بلدنا ، فشأنك ونفسك وخل بلادنا ، وأمر فارسا يقال له الفريد الظفيرى باخراجه من البلد ، فركب الفارس جواده والشيخ يمشى على رجليه أمامه وليس معه الا المروحة وذلك فى أشد الحر من الصيف ، فهم الفارس بقتله فى الطريق ، فكف الله يده عنه لما أصابه من الرعب والخوف العظيم وخلى سبيل الشيخ ٠٠٠٠ فصار الشيخ الى الدرعية ، وكان ذلك سنة ستين بعد المائة والألف ، ووصل اليها وقت العصر فنزل فى بيت عبد الله بن سويلم العرينى ، فلما دخل عليه ضاقت به داره وخاف على نفسه من محمد بن سعود صاحب الدرعية فوعظه الشيخ وسكن جأشه وروعه ، وقال : سيجعل الله لنا ولك فرجا ، فاستقر فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله ويرغبه فى نصرته ، فالتجأ الى أخويه مشارى وثنيان ولدى سعود وزوجته موضى بنت أبى وحطان من آل كثير ، وكانت ذات عقل وفهم ، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقذف الله محبة الشيخ فى قلبها فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله وقالت له ان هذا الرجل أتى اليك وهو غنيمة ساقها الله تعالى اليك ، فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته ، فقبل قولها وألقى الله محبته فى قلبه ، ورغبوا محمد بن سعود فى زيارته لعل ذلك يكون سببا لتعظيم الناس له واكرامه ٠ فسار محمد بن سعود اليه فلما دخل عليه فى بيت ابن سويلم رحب به وقال : أبشر بالخير والعزة والمنعة ، فقال له

الشيخ : أنا أبشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجـد ، وهذه كلمة (لا اله الا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهى كلمة التوحيد وأول ما دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم ٠٠٠٠٠

واســـتطرد الألوسى الى تعاهد الرجلين على النصرة اذ قال الشيخ للأمير : أما الأولى فامدد يدك فمدها وقبضها وقال له الدم بالدم والهدم بالهدم ٠٠٠ (١) وأما الثانية فلعل الله تعالى يفتح عليك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ما هو خير منه ، أى من خراج أهل الدرعية ٠ فبايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الجهاد والأمـــر بالمعـــروف والنهى عن المنكر وعلى استقامة الشعائر » ٠

الى أن قال : « ثم أمر أهل الدرعية بالمقاتلة معهم فامتثلوا أمره وقاتلوا أهل نجد والاحساء دفعات كثيرة الى أن أدخلوهم الى طاعتهم وحصلت امارة بلاد نجد وقبائلها جميعا لآل سعود بالغلبة ، وكان الشيخ كثير العطايا بحيث كان يهب كل ما غنمه الجيش مع كثرته الى رجلين أو ثلاثة ، وفى تاريخ ابن بشر الى حمد وابنه عبد العزيز ، وكانت الغنائم تسلم بيده ثم هو يضعها حيث يشاء ويعطيها الى من يشاء ولا يأخذ أمير نجد شيئاً من ذلك الا بأمره ٠٠٠٠٠ ولما فتحوا الرياض من بلاد نجد واتسعت بلادهم وأمنت الطرق وانقاد لهم كل صعب فعرض الشيخ أمور الناس وأموال الغنـائم الى عبد العزيز الأمير وانسلخ الشيخ وتفرغ للعبادة وتعليم العلم ، ولكن لا يقطع عبد العزيز الأمير ولا أبوه أمرا ولا ينفـذ حكما الا بأمر الشـيخ محمد ٠ وتوفى الشيخ المشار اليه فى سنة ست بعد المائتين والألف ،

---

(١) أى دمى دمك وهدمى هدمك ٠ قال ابو عبيدة : كانوا فى الجـاهلية الأولى اذا تحالفوا وتعاقدوا أوقدوا نارا حتى تكاد تحرقهم ٠٠٠ ويتصافحون عندها ويقولون الدم الدم والهدم الهدم ٠٠ انتهى من شرح الألوسى ٠

وهى السنة التى غزا فيها سعود بن عبد العزيز ناحيـة جبـل شمر وأخذ أهله وكسب منهم أموالا كثيرة منها ثمانية آلاف بعير · وقتل منهم عدة رجال فأخرج خمسا وقسم الباقى على جيشـه » ·

قال الألوسى : « وله من التصانيف كتب كثيرة ، منهـا كتـاب التوحيد وتفسير القرآن وكتاب كشف الشبهات وغير ذلك من الرسائل والفتاوى الفقهية والأصولية ··· وأعقب أربعة أولاد كلهم من أجلة العلماء وهم الشيخ حسين والشيخ عبد الله والشيخ على والشـيخ ابراهيم تغمدهم الله برحمته أجمعين » ·

والكتاب الذى تضمن دعوة الشيخ من هذه الكتب التى ذكرها المولى الألوسى هو كتاب « التوحيد ···· حق المولى على العبيد » وفيه يحصى الشيخ الذنوب التى تكفر صاحبها وتعتبر شركا بالله ، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الأحبار والأوليـاء ، ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعـه ، ومن الشرك اتخاذ الرقى والتمائم للوقاية والتبرك بالشجر والحجر ، والذبح لغير الله والنذر لغير الله والاستعاذة بغير الله ، والعبادة عند القبور ، وأن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ، وأن الكهانة والعـافة والتطير والتنجيم من الشيطان ، وأورد الشيخ الآيات والأحاديث التى تحرم الاستسقاء بالأنواء ، وأنكر على المتصوفة تأويلاتهم وخوارقهم ، واستشهد على تحريم الصور بقوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخـلقى » وبقول النبى عليـه السلام فى رواية عائشة : « أشد الناس عذابا يوم القيـامة الذين يضاهون بخلق الله » وحذر من المغالاة فى تعظيم النبى عليه السلام مستشهدا بقول أنس : (أن ناسا قالوا يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سـيدنا فقـال : أيهـا النـاس قولوا بقولـكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ورسـوله ، وما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » ·

وكان الشيخ ينكر الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام : « اياكم والغلو فانما أهلك من كان قبلكم الغلو » وقوله عليه السلام : هلك المتنطعون · هلك المتنطعون · هلك المتنطعون ·

ولا آخر للمناقشات التى دارت حول دعوة ابن عبد الوهاب مقابلة لتفسير بتفسير أو لآية بآية أو الحديث بحديث أو مخالفة لما يفهم من مقاصد هذه الآيات وهذه الأحاديث ، فلا يعنينا هنا أن نفصلها أو نخوض مع الخائضين فى جدلها ، ولكننا نرى فى جملة ما تصفحناه من الآراء المتقابلة أن الاجماع منعقد أو يكاد على استنكار البدع والخرافات التى ذكرها ابن عبد الوهاب ولكن الخلاف على الشرك والتكفير أو على درجة الشرك الذى يخرج صاحبه على الملة · وأكبر من خالف الشيخ فى ذلك أخوه الشيخ سليمان صاحب كتاب الصواعق الالهية ، وهو لا يسلم لأخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنة ويقابل تفسيراته بتفسيرات تذهب فى غير مذهبها ، ويعتمد على ابن تيمية وابن القيم فى مناقشة أخيه فيقول ان من أصول أهل السنة المجمع عليها كما ذاكرها « أن الجاهل والمخطىء من هذه الأمة يعذر بالجهل والخطأ حتى تتبين الحجة التى يكفر تاركها بيانا واضحا لا يلتبس على مثله أو ينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الاسلام مما اجمعوا عليه اجماعا جليا قطعيا يعرفه كل من المسلمين » ويرى أن البدع التى يمر بها الأئمة جيلا بعد جيل ولا يكفرون أصحابها لا يكون الكفر فيها من اللزوم الذى يوجب القطع به ويستباح من أجله القتال ويقول فى ذلك : « ان هذه الأمور حدثت من قبل زمن الامام أحمد فى زمان أئمة الاسلام وأنكرها من أنكرها منهم ولا زالت حتى ملأت بلاد الاسلام كلها وفعلت هذه الأفاعيل كلها التى تكفرون بها ولم يرو عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفروا بذلك ولا قالوا هؤلاء مرتدون ولا أمروا بجهادهم ولا سموا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم بل كفرتم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وان لم يفعلها · أتظنون

أن هذه الأمور من الوسائط التى يكفر فاعلها اجماعا وتمضى قرون الأئمة من ثمانمائة عام ولم يرو عن عالم من علماء المسلمين أنها كفر ؟ .... نبهنا الله واياكم من الضلال » .

وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقى فى رسالته عنتا فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت اطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع والتماس المصالح بغير أسبابها واتيان المسالك من غير أبوابها ، وقد غبر على البادية زمان يتكلمون فيه على التعاويذ والتمائم واضاليل المشعوذين والمنجمين ويدعون السعى من وجوهه توسلا بأباطيل السحرة والدجالين حتى فى الاستسقاء ودفع الوباء ، فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة ، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوان من البدع والخرافات ، ولكن المهم فى الاصلاح أن ينصرفوا عن الجهل الذى يوقعهم فى بدع غير تلك البدع وخرافات غير تلك الخرافات ، وأن يكون النهى على قدر الضرر الزائل وعلى قدر النفع المنتظر ، وهذا ما بقى للزمن أن يحكم فيه بعد دعوة ابن عبد الوهاب .

السنوسـية

وتقارب الوهابية فى عصرها دعوة أخرى فى البادية هى السنوسية التى تنسب الى السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الذى ولد ببلدة مستغانم من بلاد الجزائر (سنة ١٧٨٧) ٠

والدعوتان تتشابهان فى حماسة الدعوات البادية وفى نبذ البدع والخرافات والرجوع بالاسلام الى الكتاب والسنة ، ولكنهما تختلفان بعد ذلك فى أمور كثيرة ٠

فليست السنوسية مذهبا ولا نحلة ولا نقضا لمذهب من المذاهب وانما هى « أخوة » فى الله أو طريقة يتبعها من شاء من المسلمين ولا يطلب منه عند اتباعها غير قراءة الفاتحة على العهد ، واتباعها على درجات أو لها درجة الخواص ثم الاخوان ثم المنتسبون ، ولا فرق بين هذه الدرجات فى غير العلم والاخلاص وحسن السيرة والولاء للآخرين ، ولا يشترط فى درجاتها العليا أن تنحصر فى البيت السنوسى بل يكون منهم الأقرباء وغير الأقرباء ٠

والسنوسى مجتهد ولكنه يتبع مذهب الامام مالك الا فى القليل الذى صح عنده أنه أقرب الى السنة ، ولا يتصدى بالنقض لأحد من الأئمة بل كان أبغض الأشياء اليه ـ كما قال الشيخ محمد بن عثمان الحشايشى فى رحلته ـ أن يسمع مقالة السوء فى امام أو غير امام ، وقد تعرض للقتل من جراء اجتهاده والمع الأستاذ الامام محمد عبده

الى ذلك فى كتابه عن الاسلام والنصرانية اذ يقول : « ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى كتب كتابا فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين وتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لولاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسى للقاهرة » ٠

وقد اجتهد الشيخ فى مذهبه بعد أن حضر دروس الفقه والتفسير والحديث فى بلده وفى مراكش ولقى العلماء بمصر ومكة واليمن وصاحب بعض أئمة الطرق فى المغرب والمشرق ٠ ثم ضاقت به سبل الدعوة تحت نظر الحكومة العثمانية التى كانت تتوجس من أمثال هذه الدعوات فعكف على زاويته البيضاء واختار لمقامه واحة جغبوب وبنى بها مسجدا ومدرسة للعلوم الدينية واستصوب أن ينشر طريقته بنشر الزوايا فى أرجاء العالم الاسلامى فانتشرت حيثما استطاع بين برقة وطرابلس ومصر والسودان وبلاد العرب ، واطلعنا فى كتاب « سنوسى برقة » الذى ألفه برتشارد Pritchard على أسماء مائة وست وأربعين مدينة وقرية فيها زوايا للطريقة ويوشك أن يكون شيوخ هذه الزوايا مرجعا لأتباعهم فى أمور الدين والدنيا يرشدونهم الى الفرائض والواجبات ويفضون خصوماتهم ويكفونهم عن الشر كما قال ابن مقرب :

فكم من حريم قد اباحوا واجحفوا
بمال غنى لا يخافون عاديا

فأرشـدهم للرشـد من حـل بينهـم
فـلا زال مهـديا ولا زالا هـاديا

وكـم بـدوى فى الفـلا خلف ناقـة
« يجـول » على الأعقـاب أشعث حافيـا

تلقـاه فى مهـد الضـلالة هـاويا
فأصبح نجمـا فى الهـداية عاليـا

وكم من جهول أسـود اللون خلقـة
كسـاء لبـاس العـلم أبيض صـفيا

ولا تبيح السنوسية الغلو فى تقـديس المشايخ الأحياء أو الأموات ، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتا عنـد قبره بغير الدعاء له والترحم عليـه ، ولكنها لا تمنـع اللياذ بالمقامات للعظة والتبرك. وشرعتها فى ذلك أنها نشأت حيث كانت مقامات المرابطين من عهـد الأندلس فأرادت أن تجـددها ولا تشـعر أهـل الصـحراء بالتقحم عليهـا .

وكان الشيخ السنوسى ـ بخلاف الغالب على مشـايخ الطرق ـ خبيرا بأحوال السـياسة العـالمية فوقر فى ذهنـه أن النابلطان أى الايطاليين مغيرون لا محالة على برقة فى يوم قريب فأوغل بمقامه الى واحة الكفرة على طـريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهـل الصـحراء جنوبا وشـمالا وشرقا وغـربا ويهيىء فى جـوف الصـحراء ملاذا لمن تقصيهم غارات المستعمرين عن السـواحل ومدن الحضـارة .

وتوفى الشـيخ سـنة ١٨٥٩ فدفن بالجغبـوب حيث بنى مزاره الكبيـر وخلفـه على امامة الطـريقة ابن أخيـه السيد أحمد الشريف .

وقد كان اثر الطريقة السنوسية فى المغرب والسودان والصحراء الكبرى أثرا صالحا فى جملته وشهدنا ما لأبناء الشيخ وعشيرته من السلطان الروحى بين أهل البادية فى رحلتنا الانتخابية يوم كنا نرشح للنيابة عن الصحراء فرأينا من هذا السلطان ما لم تبلغه القوة ومخافة السطوة ، وحدث مرة أن واحدا من أصحابنا ألقى على جمع من البدو الى جوار بيت السيد السنوسى بمرسى مطروح أكوابا من الورق المقوى لشرب الماء فتهافتوا عليها وتعذر على الجند أن يفضوهم بالحسنى ، فما هو الا أن نهض السيد ابراهيم وناداهم الى قراءة الفاتحة حتى تركوا ما هم فيه جميعا وقاموا يتبعونه فى تلاوتها ثم أومأ اليهم فانصرفوا بسلام ·

ويرى العارفون بالصحراء أن هذا السلطان الروحى ينبسط الى جوفها الأقصى ويهدى أبناءها مع حسن التعهد والقوامة الى سبيل الصلاح والتعمير ·

طـرائق أخـرى

وقد عاصرت الوهابية والسنوسية حـركات كبيرة أكثرها من قبيل الطرائق و « الأخوات » التى تنشر الزوايا والخـلوات فى البوادى الشاسعة كالصحراء الغربية وما يليها ، ومنهـا طـرائق تضارع فى كثرة اتباعها الوهابية والسنوسية ، ولكنها نمط آخر من الحركات الاسلامية التى لا ترتبط بحوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين خاصة ، ويصح أن تظهر قبل ثلاثة قرون أو أربعة كما يصح أن تظهر بعد العصر الحاضر فى بيئاتها التى تلائمها ، فليست هى من قبيل رد الفعل للعوارض السـياسية أو الاجتمـاعية التى أصـابت الدول الاسـلامية فى القـرون الأخيرة ، لأن أمثالها من حـركات الاعتكاف قد ظهر قبـل ستمائة سـنة وشعاره الغـالب عليـه « دع الخـلق للخـالق » بخـلاف الحـركات الأخـرى التى تتصدى لشئون السياسة بالتأييد او بمقاومة تهيىء العدة للمستقبل فى هـذا الميـدان ٠

واكبر الطـرائق التى عاصرت الدعوة السنوسية على وجـه التقريب طريقتان : احداهما شاعت فى المغرب وشـواطئه ثم فى السودان وآسيا الصغرى وهى الطريقة التجانية ، والأخـرى شاعت فى الحجاز ثم فى مصر والسودان وهى الطريقة الميرغنية ٠

وتنسب الطريقة التجانيـة الى تجان بالمغرب حيث أقام امامها الشيخ « أحمد محمد المختار » الذى ولد بقرية « عين ماضى » سـنة

١٧٣٧ ميلادية ، وكان فى شبابه من أتباع الطريقة الشاذلية ثم دعا الى طريقته بعد أن جاوز الأربعين ، ومن آداب هذه الطريقة أنها لا تناهض الحكم القائم ولا يعنى أتباعها بعد الولاء لشيخها بتغيير السلطان حيث كان ، فمنهم من بايع الدولة الشريفية بمراكش، ومنهم من بايع محمد سعيد باشا بمصر واعتبره من الزمرة التجانية ، ومنهم من كان يسفر بين سلطان دارفور والسلطان العثمانى عبد المجيد ، ولكنهم لا يقبلون الهوادة فى مسألة الولاء للشيخ الكبير ويرتابون أشد الريب فيمن يشرك فى ولائه أحدا غير امام طريقته كأنه قابل لأن يتدرج من ذلك الى المشاركة فى ولائه لنبيه وخالقه • وقد قال صاحب كتاب الرماح وهو من كتبهم المعدودة أن « من أكبر الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده ألا يشرك فى محبته غيره ولا فى تعظيمه ولا فى الاستمداد منه ولا فى الانقطاع اليه ويتأمل ذلك فى شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان من سوى رتبة نبيه صلى الله عليه وسلم برتبة غيره من النبيين والمرسلين فى المحبة والتعظيم والاستمداد والانقطاع اليه بالقلب والتشريع فهو عنوان على أن يموت كافرا الا أن تدركه عناية ربانية » •

ويعرف اتباع التجانية فى السودان باسم « الفلاتة » وهو الاسم الذى يطلق فى الغالب على الغرباء المهاجرين من شواطىء افريقية الغربية ، ومن اتباعها من يقيم الآن فى آسيا الصغرى ويحاول أن يسترد حريته فى نشر الدعوة الى الطريق والى شعائر الدين •

ويرجع الفضل الأكبر فى انتشار الطريقة الميرغنية الى السيد محمد عثمان الميرغنى المتوفى سنة ١٨٥٣ ميلادية ، أحد تلاميذ السيد أحمد بن ادريس بالحجاز • وقد زامله فى هذه التلمذة السيد السنوسى الكبير ، وكلاهما عالم لا فقيه واسع التحصيل

ولكن الميرغنى اقرب الى خلائق العزلة والتعمق فى الأسرار الصوفية وزميله السنوسى أقرب الى خلائق الدأب والمجاهدة والسياسة العملية ، ولهذا كان الملوك والأمراء يتتبعون أخباره ويخشون بأسه من سلطان القسطنطينية الى سلطان دارفور • وكان المحافظون من العلية والرؤساء فى الحجاز يميلون الى الطريقة الميرغنية ويوجسون خيفه من شيوع السنوسية بين أهل البادية العربية والبادية المغربية ، ولم يتفق التلميذان بعد شيخهما الكبير ولكنهما لم يتنازعا فى مكان واحد ، وانقسم الميدان لهما بغير تقسيم •

كان الشاغل الأكبر للسيد محمد عثمان فى شبابه أن يبحث عن الحقيقة الصوفية حيثما وجد سبيلا اليها ، فاتبع الطريقة النقشبندية ثم الطريقة القادرية ثم الطريقة الجنيدية ثم الطريقة الشاذلية طريقة أستاذه أحمد بن ادريس •وقد ندبه أستاذه للدعوة باسمه فى مصر والسودان فبرح الحجاز الى القصير وقصد الى أسوان من طريق النيل فانتشرت دعوته بين النوبيين • وبرح مصر من ثم الى السودان ونجح نجاحا طيبا بين أهل دنقلة وكردفان واتبعه كثيرون من قبائل البجاة • ثم قفل الى الحجاز وواظب على على حضور الدروس وملازمة أستاذه الكبير الى يوم وفاته (سنة ١٨٣٧) ولكنه أحس العداء ممن كانوا ينافسونه فى مكة فعكف على العبادة بالطائف واكتفى بجهود ولديه فى نشر الدعوة اذ اتجه السيد محمد سر الختم الى اليمن واتجه السيد الحسن الى سواكن فالتف به المريدون من قبائل بنى عامر والحلانقة وأكثرهم من البجاة •

ولم تظهر فى العهد الحديث طريقة أكبر من هذه الطرق الثلاث: وهى السنوسية والتجانية والميرغنية ، ويستلفت النظر أن هذه الطرق

جميعا تشيع بين السنيين وقلما تشيع بين الشيعة ولا سيما الشيعة الامامية ٠ ولعلها بين السنيين بديل من اعتقاد الشيعة فى الامامة المنتظرة بشروطها الخاصة التى يصعب ادعاؤها بغير ادعاء المهدية، وهى دعوى كبيرة يشتد الشيعة أنفسهم فى محاسبة من يجترىء عليها فلا يتيسر برهانها ولا تخلو من المخاطرة لأنها تصطدم بسلطان الدولة وسلطان الدين ٠

المصلحون المعلمون

١ ـ السيد احمـد خان

تقدم أن النهضة الاسلامية فى القرن التاسع عشر قد اتسعت لكل تجربة من تجارب الاصلاح : اصلاح بالعـودة الى القــديم ، واصلاح بالتجديد ، واصلاح باحياء الحماسة الدينية ، واصــلاح بمجاراة الحضارة العصرية ، ودعوات يقوم بها الثائرون واخـرى يقوم بها المتطهرون المعتكفون ، وغير هذه وتلك دعوات يقــوم بهـا المعلمون والمهذبون ، وسنرى أن هذه الدعوات ـ دعوات المعلمين المهذبين ـ كانت ألزم دعوات الاصلاح وأبقاها اثرا وأوفقها لكل زمان ومكان ، وأبعدها من أن تضيع عبثا كيفما كانت أحـوال الأمم التى تنجم فيـها وتنمو بين ظهرانيها ٠

وقد ظهرت فى أهم البيئات التى ينبغى أن تظهر فيها وفى الزمن الذى ينبغى أن تظهر فيــه ٠

وظهرت فى الهنــد وفى مصر وفيما بينهما من بـلاد الشرق الأوسط ٠ وكان قادتها على هذا الترتيب الزمانى السيد احمد خان الهندى والسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهو المصــلح المخضرم بين عصر الجمهــود وعصره اليقظــة والتقــدم ٠

ولد السيد أحمد خان سنة ١٨١٧ بمدينة دلهى ولا تزال للدولة المغولية بقية فيها وكانت أسرته لأبيه وأمه من كبار المتصلين بها ، وخاله فريد الدين أحد وزرائها ، وقد أنعم عليه بهادر شاه ـ آخر ملوكها ـ بلقب « أستاذ الحرب » بعد وفاة والده ، ولما يبلغ العشرين ·

وكان التقليد المرعى بين مسلمى الهند مقاطعة الوظائف فى ظل الحكم الانجليزى ، ولكن نشأة أحمد خان بين رجال الدولة رشحته لولاية الوظائف فلم يرفض الوظيفة التى عرضت عليه فى سلك القضاء ·

وانفجرت ثورة الهند « سنة ١٨٥٧ » وهو قاض فى بجنور فحال جهده بين الثوار وقتل المسالمين والنساء ، ولم يمنعه ذلك أن يؤلف كتابه فى أسباب الثورة فيلقى تبعتها على الادارة الانجليزية ويدحض ما قيل من تدبير هذه الثورة فى بلاد الأفغان بايعاز من الحكومة الروسية ، لأن أسبابها الوطنية كافية لنشوبها مغنية عن كل تدبير يتسلل اليها من خارج البلاد الهندية » ·

روى عن السيد أحمد خان وهو طفل صغير أنه دعى مع انداده وأهليهم الى بلاط بهادر شاه فنودى عليه مع التلاميذ الذين استدعاهم الملك لتشجيعهم ومكافأتهم فلم يجب ، وتكرر النداء ولا وجوب ، ثم وجده رجال الحاشية منزويا فى مكان قريب فسألوه : لم لم تجب حين نودى باسمك بين زملائك ، فلم يحجم ان يذكر السبب الصحيح ، وهو أنه انتظر وطال انتظاره فاستسلم للنوم !

وضحك رجال الحاشية وظنوا أنه سبب لا يقال فى حضرة ملك ، فلم يشأ الصبى الصغير أن يتلطف فى الاعتذار ويتعلل بسبب غير هذا السبب الصحيح ·

ولم يتغير أحمد خان بعد أن جاوز الأربعين ، فانه كاشف أبناء قومه بعلة جمودهم ، ولم يقبل قط أن يتملقهم ويخفى عنهم أسباب قصورهم وعجزهم ، وصارح الدولة الحاكمة بأسباب الثورة ومايقع عليهم من تبعاتها ، وصارح أبناء قومه بتبعاتهم فكانت خلاصة هذه التبعات فى رأيه أنهم « نائمون » ٠

وقد وصف السيد أحمد خان بالأناة والحذر ، وكاد المترجمون له أن يصفوه بالمبالغة فى أناته وحذره ٠ ولكنهم لو وصفوه بالاقدام أو الهجوم لوجدوا الدلائل على ذلك أظهر وأكثر من دلائل الأناة ان كان معنى الأناة أن يتخلف المستأنى عن العمل فى حينه ، فما توانى أحمد خان عن مصارحة الانجليز بتبعاتهم وعيوب ادارتهم، وما توانى عن مصارحة قومه بجمودهم وعجزهم ووسائل الخلاص من نكبهم ، وما توانى بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها على النحو الذى يصلح لجميع أبنائها مع تعدد النحل وتفاوت النسبة فى توزيع السكان ، ولكنه كان يتأنى حين يخشى مغبة العجلة ولا يؤمن بجدواها ، وكانت هذه الأناة منه أدل على الشجاعة من الهجوم السريع ، لأنه كان يغضب بها أضعاف من يرضيهم بالتعجل فى غير جدوى ٠

وقد عرف مكامن الضعف فى قومه ولم تخف عليه مكامن القوة فى الدولة الغالبة على وطنه ، فجزم بضرورة التعليم الحديث ثم بدأ بارسال ابنه الى الجامعات الانجليزية واعتزم أن يصحبه اليها ليطلع بنفسه على حقائق الحضارة الأوربية فى بلادها ، وقد لخصها فى جوهرها أحسن تلخيص فجمع حقائقها النافعة فى كلمتين : وهما العلم والخلق ، ورأى الشاب المسلم لا يكسب الخلق المتين بغير دين، فلخص برنامج الاصلاح عنده فى الدين المستنير ، وجعل شعاره كله كلمة واحدة يعيدها مرات : وهى علم ، ثم علم ، ثم علم ، أو تعلم ثم تعلم ثم تعلم ٠ بغير انقطاع عن التعلم أو التعليم ٠

ولما توفى وهو فى الحادية والثمانين كان للمسلمين فى الهند مدرسة كلية عالية ومدارس حديثة متفرقة ، وكان لهم ما هـو أهم من ذلك وألزم وهو الوجهة المرسومة ومعالم الطريق التى لا تخفى على ذى عينين ، وقد خطا السيد أحمد خان هذه الخطوة التى أحجم عنها معاصروه لأنهم لا يعرفونها ولا يجسرون عليها ، فعـــرفها ولم يحجم عنها • وقال من قال انها لخطوة عظيمة واستصغرها آخرون فقالوا انه قد أطال الأناة فيها ، ولكنهم مجمعـــون على أنها هى الخطوة التى لابد منها فى البداءة ، فلا تتأتى الخطوات التالية الا بعد الاقدام عليها ، وقد أقدم عليها فاتبعه فى الطريق من يؤثر العجلة ومن يؤثر الأناة •

٢ ـ جمـــال الدين :

والمعلم الأكبر جمال الدين من أبناء الأقاليم الوسطى • بين الهند والبلاد العربية وبلاد الدولة العثمانية ، وكأنما شاءت العناية أن يولد حيث يتوسط العالم الاسلامى ويتولى فيه دعوة الاصـــلاح والتعليم من أقصاه الى أقصاه •

والقول المشهور أنه هو وآباؤه وأجداده من أبناء الأفغان ، ويقال غير هذا أنه ولد بقرية « أسد أباد » فى جوار همدان من بلاد فارس ثم انتقل الى الأفغـــان وتعمد اخفـــاء نسبته الفارسـية بعـد أن تجرد لدعوة الاصلاح فى العالم الاسلامى كافة وتوقع من شاه العجم أن يطالب بتسليمه لأنه من رعاياه ، فضـــلا عن غلبـة المذاهب السنية على البلاد التى خاطبها بدعوته ومنها بلاد التـرك ومصر وسائر البـلاد العربية •

الا أنه لا خلاف فى نشأته منذ صباه فى بلاد الأفغـــان ، وفيها تعلم الفقه على مذهب أبى حنيفة ودرس علم الكلام وهـــو خلاصـة الفلسفة الدينية ، كما أحاط بالميسور من علوم الرياضة والهندسة فى

كتب الأقدمين ، وكان فى أخريات أيامه يعرف الفرنسية والتركية وقليلا من الانجليزية ، عدا الفارسية والعربية التى كان يتكلم الفصيح منها بلهجة الفرس المستعربين ٠

واذا لخصت رسالة جمال الدين فى كلمتين فرسالته بالايجاز هى « الجامعة الاسلامية » ٠

ولكن الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين شىء غير الجامعة الاسلامية التى يراد بها توحيد الحكومات وضمها جميعا الى حكومة واحدة ، وانما يتوقف فهم هذه الجامعة على مراجعة أحوال الأمم التى درج جمال الدين وهو يستمع الى أخبارها ويشترك فى شؤونها ، وهى بلاد الأفغان وايران ، وقبائل الترك ومن ورائهم دولة بنى عثمان ، ومن حولهم مطامع الاستعمار ودسائسه فى أوج سلطان المستعمرين من البريطان والروس بعد اجتياحهم للهند وأواسط آسيا بزمن قليل ٠

فقد فتح السيد عينيه على بلاد الأفغان وفارس وهى على عنف ما يكون من التنازع والبغضاء ، وكانت حكومة الهند البريطانية تستغل الخلاف بين الأمتين فى المذهب والخلاف بينهما على الحدود كما تستغل حاجتهما الى المال والسلاح ، فتغرى احداهما بالأخرى وتبذل لها من مالها وسلاحها ما تقوى به على جارتها وتشترط عليها الا تعقد الصلح معها حتى تأذن لها والا قطعت عنها المدد والمعونة ، وكانت حكومة الهند لا تأذن بالصلح الا أن تكون الدولة المغلوبة قد نزلت عن دعواها فى الحدود الهندية ٠

وربما سكن القتال بين الأفغان والفرس على مقربة من الهند لينشب بين الفرس والترك من قبل العراق وبحر الخزر بايعاز من الروس أو طلاب الرخص الاقتصادية ، وينتهى القتال من هنا وهناك

بغنيمة للانجليز أو للروس وخسارة على الأفغان والفرس والترك أجمعين ٠

وقد وضع جمال الدين يده على الداء كله حينما أدرك أن العلاج السريع لهذه المحنة انما يبدأ بالتوفيق بين الأمم الاسلامية وكف المطامع والدسائس عن بلادها ، وكان يشق عليه كثيرا أن يرى هذه الأمم كما قال «متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد» مطاوعين للمستعمرين والمشتغلين جادين فى خدمتهم كأنها فريضة من فرائض الدين ٠ فعقد عزيمته على مسالة واحدة يتحراها مدى الحياة وهى حسم الخلاف بين الأمم الاسلامية وايصال الأبواب على المستعمرين والمستغلين حتى تنقطع المطامع التى تسول لهم العدوان على الأمم الاسلامية وايقاع الفتنة والشقاق بين حكوماتها وطوائفها ٠

وهذه هى الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين ، وفى سبيلها رحل الى الهند وبلاد العرب والآستانة ومصر وروسيا وفرنسا وانجلترا وخرج من الهند مرة ، على رواية مستر بلنت المستشرق الايرلندى ، قاصدا الى الويات المتحدة ليتجنس بالجنسية الأمريكية ويستثير الأمريكيين على الانجليز والروس ، وكان قد سمع بمساعى الأمريكيين فى الشرق الأقصى فخطر له أن يستخدمها فى قضيته ، ولكنه أقام أشهرا فى الولايات المتحدة على قول مستر بلنت فعدل عن عزمه ولم يتمم ما نواه من رحلته ، ولعله عرف بالخبرة الواقعة أنه يعلق الرجاء حيث لا رجاء ٠

وقد خطر لجمال الدين يوما أن يرسل تلميذه ومريده الشيخ محمد عبده الى السودان لتنظيم الثورة المهدية وتحويلها الى خدمة الجامعة الاسلامية ، وخطر له فى مصر أن يسقط الخديو اسماعيل ويقيم فيها الجمهورية ، بل خطر له أن يحرض على اسماعيل من يغتاله عسى أن يجد من خليفته توفيق مستمعا لنصائحه ووصاياه ٠

وقد توسل جمال الدين فى رسـالته بكل وسيلة تملكها يداه فاصدر فى أوربة صحيفة « العروة الوثقى » وصحيفة « ضـياء الخافقين » وأنشأ فى مصر محفلا ماسونيا بعيدا من سيطرة المحافل الأجنبية ، وقيل انه ألف فى مكة المكرمة جماعة « أم القرى » وهم بالسفر الى نجد لقيادة الحركة الوهابية ، ولم يهدأ قط فى حياته عن عمل مستطاع يحقق به رسالة الجامعة الاسلامية ، واتهمـه السلطان عبد الحميد بالعمل فى الآستانة على استمالة الخديو عباس الثانى الى تنفيذ مساعيه يوم زارها فى ضيافة السلطان ، ثم أصيب بالسرطان فمات به (سنة ١٨٩٧) وحظر السلطان الاحتفال بجنازته فلم يشيعه الى مقره الأخير غير آحاد معدودين ، وفارق الحيـاة ولم تتحقق مساعيه لأنها أكبر من أن تحققها جهود جيل واحـد ، غير أنه أحسن بذر البذور فلم تمت فى تربتها الصالحة ، وحق لمترجمه أن يقول أن تاريخ الشرق الاسلامى فى ثوراته على الحـكم المطلق وعلى مطامع الاسـتعمار والاسـتغلال لن ينفصـل عن تاريخ جمال الدين ٠

٣ ـ محمد عبده :

هؤلاء المصلحون المعلمون الثلاثة نشأوا كنشأة الاخوة فى أسرة واحدة : ولد السيد أحمد خان فى سنة ١٨١٧ وولد السيد جمال الدين فى سنة ١٨٣٩ وولد الشيخ محمد عبده فى سنة ١٨٤٩ ٠٠٠ وكان بينهم من التخصص على غير قصد ما يشـبه توزيع الوظائف فى المهمة الواحدة ، فتولى كل منهم عمله الذى يستطيعه حيث يستطاع ، ولم يكن للعالم الاسلامى غنى عن واحد منهم فى موضعه أو فى مهمته كما فرضتها عليه دواعى الاصلاح ٠

ولقب الشيخ محمد عبده بحق « الأستاذ الامام » ٠٠٠ لأن هذا اللقب يلخص رسـالته فى الاصـلاح بين زميليه أحمد خان وجمال الدين ٠

فهو مصلح معلم كالسيد أحمد خان ، ولكنه يزيد عليه بالامامة الدينية التى لم يتهيأ لها السيد أحمد ولم يرشح نفسه لها ، بل قصر جهوده كلها على ايقاظ المسلمين وتنبيههم الى حاجتهم من العلم الحـديث ٠

فالشيخ محمد عبده أستاذ امام ، ورسالته هى التعليم والامامة فى وقت واحد ٠ وفحواها أنه خرج من تجاربه كلها بنتيجة واحدة وهى فساد الجو السياسى من حوله ، فلم يبق له أمل فى اصـــلاح المسلمين بالوسائل السياسية وآمن برسالته « العلمية الدينية » كل الايمان فانصرف بعزيمته كلها الى رفع الحجر عن العقول بأجازة الاجتهاد لمن يقدر عليه وتفسير المسائل الدينية تفسيرا يطابق العلم الحـديث ٠

وتبدو هذه الكلمات سهلة هينة لمن يقرأها فى العصر الحاضر ، ولكنه يعرف صعوبتها ـ بل خطرها ـ اذا عرف أن القول بدوران الأرض كان يعرض القائل به لتهمة الكفر والتواطؤ مع أعداء الدين على افساده ، وأن استخدام التلفون حرج شديد لأنه قد يكون من آلات الشيطان وأفاعيل السحرة « المتشيطنين » ٠

وقد بدا للأستاذ الامام عبث السياســة وهــو يعــاون السيد جمال الدين فى مساعيه الأوربية ، فكان يعاود له المشـــورة بتركها والاقبال على تعليم المصلحين والمرشدين ، وكان يقول له حينا بعد حين : اننا اذا علمنا عشرة وأرسلناهم فى أرجاء العالم الاسلامى فعلم كل منهم عشرة من مريديه أصبح فى العالم الاسلامى مائة مرشد فألف مرشد بعد ثلاثين أو أربعين سنة ، وذلك أوثق وأوفق من عملنا الضائع بين الساسة والأمراء ٠٠٠ وكان السيد جمال الدين يستمع اليه مرة ويحتد فى جوابه مرة أخرى فيقول له : انك لمن المثتطين ٠

وقد بدأ الشيخ محمد عبده حياته بالتعليم بعد حصوله على درجة العالمية من الجامع الأزهر ، فألقى بعض الدروس (سنة ١٨٧٩)

فى دار العلوم ثم طاحت به شبهات السياسة فأخرج منها وألزم المقام بقريته « محلة نصر » باقليم البحيرة ، ثم أفرجت عنه وزارة رياض ووكلت اليه الاشراف على تحرير الصحيفة الرسمية فأدركته الثورة العرابية وهو فى تلك الوظيفة ، وقد اشترك فى الثورة حتى أفلت العنان من يديها فأنف من خذلانها فى أحرج مآزقها وأصابه ما أصاب رجالها من عقوبات السجن والنفى الى خارج البلاد ، فاتخذ من النفى فرصة لنشر الدعوة الى الحرية الفكرية وضاق به المقام فى بيروت فلحق بأستاذه جمال الدين فى باريس ، وتعاونا معا على اصدار صحيفة « العروة الوثقى » فلم تتم عشرين عددا حتى ضربت حولها السدود فى البلاد الاسلامية فتعذر المضى فى اصدارها واختار الشيخ محمد عبده أن يشخص الى تونس عسى أن يتسع له فيها مجال العمل لما كان بين الدولتين الفرنسية والانجليزية يومئذ من التنافس على اجتذاب أقطاب المسلمين ، فلم يلبث غير قليل حتى خاب ظنه وأزمع الرحلة الى بيروت ليقيم فيها مشتغلا بالدراسات الأدبية ، وفى هذه الفترة عكف على شرح نهج البلاغة ومقامات البديع وترجم من الفارسية رسالة أستاذه جمال الدين فى الرد على الدهريين ·

ثم عفى عن المنفيين فعاد الى القاهرة وتولى القضاء قاضيا فمستشارا بالمحكمة العليا ، وشغله فى وظيفته بالقضاء الأهلى أن ينظر فى اصلاح المحاكم الشرعية وفى تجديد نظام التعليم بالجامع الأزهر فأشار بتأليف مجلس من المختصين يشرف على شئونه العلمية والادارية وندب للعمل فى هذا المجلس عند تأليفه ، ثم اختير لمنصب الافتاء فلم ينقطع فى هذا المنصب عن القاء الدروس بالجامع الأزهر واصلاح التعليم فيه ·

واستفاضت شهرة الشيخ فى العالم الاسلامى من تخوم الصين ومراكش الى أفريقية الجنوبية ، واعتمد عليه المسلمون فى استجازة ما يجوز وتحريم مايحرم وهم بين الحضارة الحديثة وجمود الجامدين

حائرون فيما يأخذون وما يدعونه من أمولا الدنيا والدين ، ويدل على استفاضة هذه الشهرة فتوى «الترنسفال» التى أقامت الدنيا وأقعدتها عدة شهور ، لأنه أفتى فيها بتحليل طعام أهل الكتاب ولبس ملابسهم، كما أفتى بالاجازة فى أمر صناديق التوفير توضيحا للمقصود من تحريم الربا المضاعف بنص القرآن الكريم ، وقد كانت الأسئلة تتقاطر على « المفتى » من ارجاء العالم الاسلامى فيبادر الى الاجابة عنها على ما فى الجواب أحيانا من العنت والاصطدام بجهالة الجامدين ومنافعهم الموروثة فى كل قطر من أقطار المشرق والمغرب ، ولا يغلو من يقول أنه فارق الدنيا ـ وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ـ وله فى كل بلد اسلامى دليل ينير الطريق من فتاواه ودروسه وسيرته التى ارتفع بها مكانا عليا من النزاهة النادرة والخلق المتين ٠

الساسة المصلحون

وعلى الجملة ينبغى أن يقال ان هؤلاء المصلحين المعلمين قد عملوا غاية ما فى الوسع للاصلاح والتنبيه واقامة القدوة المثلى لمن تابعهم من المصلحين والمنبهين ٠

الا أن الحقيقة الواقعة تستوجب علينا أن نقول ان أعمال ثلاثة أو ثلاثين من المصلحين المعلمين لم تكن لتبلغ هذا المدى البعيد من حث العالم الاسلامى واستنهاضه لو لم يكن لهم سميع مجيب من جيشان الشعور بين المسلمين ، وان يكن جيشانا مبهما يتخبط بين غواش الظلم والظلام ٠

وفضل العقيدة هو الفضل الأكبر فى اعداد النفوس للاستماع من المصلحين والايمان بوجوب التغيير والاتجاه الى وجهته القويمة ، ومن ثم وجدت فى الحكومات الفاسدة نفسها عوامل اليقظة والانتباه الى التغيير أو الاصلاح ، فوجد فى ايران وزير كميرزا تقى خان يحاول أن يحد من سلطان الشاه ناصر الدين ، ووجد فى تركية رجال كأحمد مدحت يحاولون مثل هذا مع السلطان عبد الحميد ، ووجد فى مصر رجال كمحمد شريف وأحمد رياض قبيل انفجار الثورة العرابية ، ووجد فى المغرب أمثال خير الدين ، ولم يكن وجودهم مصادفة ولا فلتة من الفلتات العارضة ، بل كان علامة من علامات الزمن لابد لها من معقبات وآثار ٠

المهـــديون

من أقوى الدلائل على عمق الأثر الذى تركته ضربات الاستعمار فى أرجاء العالم الاســلامى هــذه الظاهرة المتفقة التى تواترت فى تلك الأرجاء ولما ينقض على هجوم الاستعمار جيل واحد ، وخلاصة هذه الظاهرة أن رد الفعل بعدها قد برز بكل نوع من أنواعه فى تلك الأرجاء فلم يكن فى العالم الاســـــلامى كله بلد خلا كل الخلو من احداها ٠

فكما توزع العالم الاسلامى دعوات المعلمين المصلحين كذلك توزع دعوات الساسة وأصحاب الصوفية ودعوات التجديد أو العودة الى القديم الصحيح وتخليصه من شوائب البدع والخرافات ، ثم توزعته كذلك دعوات أخرى من نوع آخر وهى دعوات المهديين الذين زعموا أنهم مبعوثون على موعد وأنهم رسل الخلاص والنجاة ٠٠ فظهر منهم من ظهر فى الهند ، وظهر منهم من ظهر فى الرقعة الوسطى من أرض فارس ، وظهر غيرهم فى وادى النيل ، ومن قبل رأينا أن هذه الأقطار هى التى أخرجت العالم الاسلامى السيد أحمد خان والسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وأخرجت كذلك رواد الساسة والوزراء ٠

ظاهرة تدل على قوة الأثر وتدل كذلك على حياة البنية التى تستجيب لكل فعل برده الذى يناسبه فى حينه ، وليست البنية هنا إلا العقيدة التى، هى مرجع تلك القوة وتلك المقاومة ٠

والمهديون نوع آخر من الدعاة ، ولكنه نوع له محله وأوانه كيفما كان ٠

وأشهرهم فى عصر الاستعمار ثلاثة : هم ميرزا على محمد الملقب بالباب وقد ظهر فى ايران ، وميرزا غلام أحمد القاديانى وقد ظهر فى الهند ، ومحمد أحمد عبد الله وقد ظهر فى السودان ٠

والغالب على اعتقاد المؤرخين أن المهديين قوم خادعون يتعمدون الكذب فى دعوتهم ويسرون غير ما يعلنون من طلب الاصلاح والعناية بشئون الدين ٠

ولكن الكذب المحض فى أمثال هذه الدعوات أمر غير معقول ٠٠ والأقرب عندنا الى المعقول فى أمرهم أنهم عاشوا فى فترة انتظار متفق عليه ، وأنهم نشأوا نشأة « صوفية » فى أكثر الأجيال فاشرأبت نفوسهم أن يكون الرجاء المنتظر على أيديهم ، وربما ساورهم الظن أنهم مندوبون لتحقيق الرجاء فأشفقوا أن ينكلوا عن هذه الندبة وأقدموا خوف المخالفة وأملا فى صدق الوعد مع العمل والجهاد ، ثم طوتهم الشبكة المعقدة من هواجس ضمائرهم ومما أحاط بهم من عقائد اتباعهم ومن ضرورات المواقف المتلاحقة التى لايسهل الخلاص منها ، فأسلموا أنفسهم للحوادث واعتذروا لها بحسن المقصد وسلامة النية ، أو كان منهم من يلج فى المكابره والمغالطة لأنه لا يأمن التراجع ولا يقدر عليه ، ومنهم من يخالطه الوسواس فيفعل أفعال المجانين ٠

ونحسب أن الباب أشد هؤلاء ثقة بنفسه فى البداية وأقلهم ثقة بها فى النهاية ، ولهذا كان أبعدهم عن العقيدة السوية فى الاسلام ٠

(١) الباب :

وأول نشأة البابية فى عصر الاستعمار شيخ يسمى الحاج كاظم الرشتى الجيلانى ولد فى أول القرن الثالث للهجرة (سنة ١٢٠٥)

وتتلمذ على الشيخ أحمد الاحسانى الذى ولد فى البحرين وجال فى بلاد فارس وتلقى الدروس عن الفلاسفة والمتصوفة ، ودان بمذهب الحلول مع تغليبه لمذهب الشيعة الامامية الاثنى عشرية ٠

وقد أخذ كاظم الرشتى مبادىء الفلسفة والتصوف عن هـذا الشيخ الذى تنسب اليه الفرقة « الشيخية » وتعلم من أسـتاذه أن المهدى المنتظر سابح فى عالم الروح يوشك أن يظهر بالجسد خلافا لاعتقاد الامامية أنه محتجب بجسده الى أن يحين يوم الفرج الموعود، وكان من تلاميذ الحاج كاظم فتى يسمى على محمد يتنسك وتعاوده حالات الوجوم والغيبوبة ، فتسمى باسم باب المهدى أو باب الدين ، وقال ان المهدى انما يأتى الى الدنيا بعد اجتماع الخلق على كلمة واحدة تتوافق فيها عقائد الاسلام والمسيحية واليهودية والوثنية ، وبث بين أصحابه عقيدة كعقيدة الحلول يزعم من آمن بها أن جسده يستنزل اليه الروح المتشبه به من الشهداء والقديسين ٠٠٠ وسبقه أصحابه الى دعواه فزعموا له أنه تلبس بروح الامام على رضى الله عنه فنادى من ثم بأنه هو المهدى الموعود ، وأنه صاحب كتاب يسمى البيـان هو المشـار اليه فى القـرآن بقوله تعـالى : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » وتلا على الناس سورا من هذا الوحى فعابوا عليه أخطاءه النحوية فتعلل لها بعلة توائم دعوته التى تحلل المؤمنين بها من قيود العقائد السالفة ، وقال ان الكلمات لما علمها الله آدم عصت كعصيانه فعاقبها الله وقيدها بقيود الاعراب ثم أذن له أن يطلقها فهى بعد اليوم فى حل من تلك القيود ٠ !

قال ميرزا عبد الحسين صاحب الكواكب الـدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية : ان حضرة الباب وضع كتاب البيان ورتبه على تسعة عشر واحدا وقسم كل واحد الى تسعة عشر بابا والآن نقول : ان أبواب هذا الكتاب تكون اذن من حيث الجملة والمجموع ثلاثمائة وواحدا وستين بابا وهذا العدد ينطبق على مجموع أعداد

حروف (كل شىء) اذا استخرجت بحساب الجمل ، وقد خصص حضرته الواحد الأول لنفسه والثمانية عشر واحدا الباقية لكبار الصحابة لكل منهم واحدا ، ولما كان حاصل جمع أعداد حروف (ص) اذا استخرجت بحساب الجمل ثمانية عشر لذلك سمى أصحابه المشار اليهم حروف ص ونسب انتشار الحركة الروحيـــة ونفخ الحيـــاة الايمانية التى برزت وظهرت تحت ظل البيان الى تلكم الأصحاب ، ولكن حضرته لم يكمل بقلم كتابه جميع هذه الأبواب وانما تمم كتابه آحاد ثمانية وتسعة أبواب من الواحد التاسع فقط تاركا كتابة البقية الباقية ، ويتضح لكل من يطلع على كتاب البيان ويتصفح ما كتبه الحضرة أن حضرته عهد بمهمة اتمام الكتاب الى حضرة بهاء الله ، وكذلك كل من طالع كتاب البيان ودرسهم بامعان وسبر غور مطالبه تبين له أن الكتاب لا يرمى الى تشريع كامل مستقل بنفسه ولا الى احكام قائمة على حدة دونت لتقوم باحتياجات أمة فى دورة كاملة من دورات الزمن ، وانما يفهم منه أمران : الأمر الأول حل نظريات اعتقادية اسلامية ومشكلات مهمة أصولية من مثل الرجعة والساعة والقيامة والحياة والموت والجنة والنار ونحوها ، وغير خاف أن هذه المواضيع من حيث التفسير والفهم كانت منذ القدم موضع مباحثات علماء الاسلام ومجادلاتهم ومنشأ اختلافهم فى الرأى . مثال ذلك أن جمهورا فهموا من القيامة انها حشر الموتى باجسادهم الأولية بعد قيامهم من هذه الأحداث الترابية وذهب آخرون الى تفسيرها بظهور المهدى المنتظر واحتشاد الناس تحت لواء أمره ونيلهم الحيـــاة الايمانية من الايمان به والايقاف بصدقه والتخلق بالأخلاق الفاضلة الالهية ، وكذلك اختلفوا فى معنى الرجعة فذهبت قبائل الى انهـا عبارة عن رجعة الأئمة السابقين باجسادهم ولم تزل هذه القبائل تتصور ذلك الى اليوم ، وآخرون توصلوا الى خرق حجب الظواهر واماطة البراقع عن وجوه الحقائق والسرائر واعتقدوا أن المغزى من الرجعة هو رجوع الآثار والصفات التى كانت كالمعنى الذى يفهم من

قول القائل عند امتداح فتى بالشجاعة ان فلانا رجعة رستم « وهو بطل الفرس المشهور » ٠

وفى هذه النبذة ما يكفى للوقوف على نهج الباب فى تأسيس قواعده وعقائده ، وهى مزيج من أسرار التصوف والتنجيم وتأويلات الباطنية ومحاولات التوفيق بما هو أقرب الى التلفيق ٠

أما فرائض البابية فالصلاة عندهم ركعتـــان فى الصباح ، والكعبة عندهم مسجد فى شيراز ، ثم البيت الذى ولد فيه الباب بمدينة تبريز ، والصوم شهر من آخر نزول الشـــمس ببرج الحوت ليوافق عيد الفطر يوم النوروز أول الحمل ، ويجوز الزواج من اثنتين ولا يجوز الطلاق ، وشرب الخمر والتدخين محرمان ، ولا حرج فى شرب الشاى والقهوة ، وهذه الأحكام تسرى بعدد حروف «المستغاث» بحساب الجمل الى نيف وألفى سنة ، ثم يظهر باذنه امام آخر بعيد النظر فى جملة تلك الأحكام ٠

ونقل الدكتور ميرزا محمد مهدى خان فى كتابه مفتاح باب الأبواب انه « كان من جملة دعاته امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى بأم سلمة (١) من بنات أحد المجتهدين فى العَجم وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بذلك الرجل ـ أى الباب ـ عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها فى مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك ٠٠٠ ولما وقعت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة فى مازندران جيشت جيشا قادته مكشوفة الوجه وسارت امامه طالبة اعانتهم ، وفى أثناء الطريق قامت فى الناس خطيبة وقالت : أيهـا الناس ؛ ان أحكام الشريعة الأولى ـ أعنى المحمدية ـ قد نسخت وان أحكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الآن فى زمن لاتكليف فيه بشىء ٠٠٠ فوقع الهرج والمرج وفعل كل من الناس ما كان يشتهيه

(١) قال الدكتور فى التعليق على هذا أن الصحيح أن اسمها رزين تاج ٠

من القبائح ثم قبض عليها وألبست البرقع جبرا وحكم عليها بأن تحرق حية ، ولكن الجلاد خنقها قبل أن تلعب النار بالحطب الذى أعد لاحراقها » ٠

ويختلف فى نسب الباب ، ولكنه على الأشهر ينمى الى أب بزاز يسمى ميرزا رضا وأم تسمى خديجة ، وكان مولده أول المحرم سنة ١٢٣٥ هجرية ، ومات أبوه قبل فطامه فرباه خاله ميرزا سيد على التاجر وعلمه الفارسية والعربية واتقان الخط ٠ أما أتباعه فيزعمون أنه لم يتعلم وانما كان أميا يكتب بالهام من الله ، وقد شغل فى صباه بالرياضات الصوفية وتسخير روحانيات الكواكب ، وقيل انه كان يصعد فى بلدة أبو شهر الى أعلا البيت عارى الرأس ويمكث فى الشمس الهجيرة الى العصر حيث تبلغ الحرارة درجة اثنتين وأربعين (سنتجراد) ثم تعتريه من جراء ذلك نوبات ويعيد الكرة اياما على هذه الحال حتى أشفق خاله من عقبى هذه الرياضات الشاقة فأرسله الى كربلاء أملا فى شفائه على أيدى الأئمة والمجتهدين ، ولكنه أمعن هنالك فى رياضياته وتراءت له الأشباح فى خلواته ، فكاشف اناسا صدقوه لأنهم كانوا على رقبة الامام الموعود ، ثم استفحل أمره واجترأ أتباعه على نشر دعوته وتهديد من يخالفهم فى معتقده ، وهبت الثورة باسمه فى زنجان ومازندران وتبريز ، وعرض أمره على العلماء فتحرج بعضهم من الحكم بقتله لعله أن يكون مخالطا فى عقله غير مسئول عن فعله ، وأفتى غيرهم بوجوب القتل اتقاء للفتنة ، فسجن ثم قتل (فى سنة ١٨٥٠) وحدث عند اطلاق الرصاص عليه فى زعم البابيين أنه ظل واقفا لأن الرصاص قد أصاب قيوده ولم يصبه فى مقتل ، ولكن شهود الحادث من غير البابيين يقولون انه مات وألقيت جثته فى خندق فأكلتها السباع ٠

وكان الباب قد أوصى قبل اعتقاله باتباع خليفته ميرزا يحيى الذى نعته بصبح أزل ، فانتقل صبح أزل الى بغداد ومعه اخوه

ميرزا حسين على الملقب بالبهاء ، ثم اختلفا فانقسمت الطائفة الى فرقتين تعرف احداهما باسم الأزلية وتعرف الأخرى باسم البهائية ، ونشط كلاهما للدعوة فى البلاد الاسلامية وغيرها ولم يبق من اتباعهما فى العصر الحاضر غير القليل ·

٢ ـ مهدى السودان :

أشرنا فيما تقدم الى علامات كثيرة من علامات التوقع والاستعداد فى العالم الاسلامى عند أواسط القرن التاسع عشر بعد اصطدام الشرق بغزاوت الاستعمار ، ونضيف الى هذه العلامات علامة أخرى فى هذا الصدد نلمحها فى التجاوب السريع بين بلدان المسلمين لكل خبر من أخبار الدعوات والحركات العامة ، وبخاصة ما كان من اخبار الثورة والتغيير ، فلم يكد داعية البابية يلقى مصرعه حتى تسامع بهذا المصير مسلمو الهند وافريقية الشرقية والوسطى على التخصيص ، وهى قديمة الصلة ببلاد ايران لا تنقطع عنها أخبارها من صدر الاسلام ، وقد ترجع هذه الصلة الى حقبة طويلة قبل البعثة المحمدية ·

ولو كان الباب قد انتصر فى معاركه مع جند الحكومة الايرانية لقد كان هذا الانتصار خليقا أن يوصد الطريق على من يطمحون الى ادعاء المهدية بعده ، ولكن خذلانه على نقيض ذلك قد فتح الطريق فى الهند وافريقية ومواطن شتى لمن يطمحون الى نصيب خير من نصيبه ويؤمنون فى سريرتهم بصلاحهم وصلاح أوقاتهم للقيام بالرسالة المهدية ·

وكان أقوى من تصدى للقيام بالرسالة المهدية بعد الباب « محمد أحمد » الذى اشتهر باسم المهدى السودانى ، ويلفت النظر فى هذا المقام أن دعوته الأولى كانت باسم الامام الثانى عشر الذى يترقبه الشيعة الاماميون ، وقد نشأ بين أهل الطريق وقرأ أشراط

الساعة فى كتب محيى الدين بن عربى وأطلع على قول ابن حجر والسيوطى أن من هذه العلامات خروج صاحب السودان ، ولم يكن فى السودان يومئذ من يشك فى اقتراب الساعة لسوء الحال وشيوع الفساد واجتراء المفسدين على الجهر بمنكراتهم حتى اجترأ بعضهم على زفاف الغلمان بدلا من النساء ، فلما انهزمت الدعوة المهدية فى ايران تهيأت الأذهان فى البلدان الأخرى لقبول دعوة غيرهـــا يكتب لها النجاح ، ووافق ذلك سخطا عاما بين كبار الزعماء الذين كانوا يتجرون بالنخاسة وبين العامة الذين أرهقتهم الضرائب وبين التجار الذين كسدت مرافقهم لاضطراب المواصلات وتتابع المنازعات بين مصر والسودان والحبشة فتهيأت العقول للاصغاء الى دعـاة الاصلاح أو دعاة التغيير كيف كان ٠

وينتسب المهدى الى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، ويقال ان أجداده الأقربين أقاموا باقليم المنيا زمنا بعد مقامهم الى جوار الفسطاط ، ثم انتقل بعضهم الى بلاد النوبة ، ثم استقروا فى دنقلة ، ثم انتقل أبوه عبد الله الى الخرطوم فعمل فيها بصناعة السفن وتوفى بقرية كررى الى جوار أم درمان ٠

وقد ولد له ابنه محمد من زوجته آمنة (سنة ١٨٤٥) وفى مكان مولده خلاف ، الا أنه على القول الأشهر قد ولد بجزيرة لبب ومات أبوه وأمه وهو صغير ٠

ودرج الطفل الصغير فى موطن يكثر فيه أبناء الطريق وهو يطيل التفكير فى يتمه وفى المشابهة بينه وبين النبى عليـه السـلام باسمه واسم أبيه وأمه ، فمال الى النسـك والعبـادة وحفظ القرآن ودرس الفقه وطرفا من التاريخ ، وأخذ نفسه بالرياضة الصـارمة فاجتنب الملاهى وحرم على نفسه ما يستباح من غشيان مجامع الطرب والغناء وكانت صرامته هذه مثار الخلاف بينه وبين أستاذه الشيخ محمد الشريف أحد مشايخ الطريقة السمانية لأنه سـمح لتلاميذه

ومريديه بالغناء والرقص فى الاحتفال يختان أبنائه ، فأنكر عليهم محمد احمد هذه المجانة ٠٠ وغضب عليه أستاذه ففارقه ولاذ بشيخ آخر من شيوخ الطريق بجزيرة أبا الى أن استقل بالمشيخة وناهز الأربعين ووافق ذلك لقاءه للشيخ عبد الله التعايشى من المشتغلين بالتنجيم فطابق ما عنده من علامات الحروف والحساب على ظهور المهدى وتبادلا التشجيع والتعاون على بث الدعوة باسم المهدى الموعود ووزيره « صاحب الخرطوم » كما جاء فى بعض النبوءات ٠

وبعد وقائع بينه وبين جنود الحكومة تم له الظفر بالحملة المعروفة باسم حمكة هكس وهى حملة لم يكن لها نظام ولا مدد ولا ذخيرة والمال بل كان جنودها يجمعون جزافا من المجندين المرفوضين فى القرعة العسكرية وكانت الحكومة البريطانية تعوق مصر عن ارسال المال اللازم والعدة الضرورية لتيسيير الحملة الى كردفان ، فلم تستطع أن ترسل لقائدها غير أربعين ألف جنيه من المائة والعشرين ألفا التى طلبها وأبرق اللورد جرانفيل من لندن الى القاهرة فى السابع من شهر مايو سنة ١٨٨٣ يعلن « أن حكومة جلالة الملكة غير مسؤوله بحال من الأحوال عن حملة السودان التى تولتها الحكومة المصرية بأمرها ولا هى مسؤولة عن تعيين القائد هكس أو أعماله » ونشب الخلاف بين قادة الحملة لقلة وسائل النقل وصعوبة التخلف فى وقت واحد بعد أن تسامع اهل السودان جميعا بتأهب الحكومة لتجريد حملتها منذ عدة شهور ، واستبد هكس برأيه فى اختيار الطريق مع ندرة الماء وارتياب الخبراء بأمانة الأدلاء ، فوقع الجيش فى كمين بعد كمين ثم فوجىء بضعفى عدده من الدراويش وهو على غاية الجهد من العطش والجوع والتعب فلم يفلت منه غير آحاد معدودين ، وكان عدد الدراويش اكثر من عشرين الفا قتل منهم بضع مئات وبلغ القتلى من الحملة المصرية نحو عشرة آلاف ٠

كانت هذه الكارثة ذريعة لاكراه الحكومة المصرية على اخلاء السودان ، فانحصرت القوة التى رفضت الاخلاء بقيادة جوردن فى مدينة الخرطوم ثم انقطع عنها المدد تنفيذا لسياسة الاخلاء وتمهيدا لاعادة فتح السودان باسم جديد ، واضطرت المدينة بعد اليأس من النجدة الى التسليم ٠

وقد تقدم أن القوم عاشوا ردحا من الزمن يترقبون ظهور المهدى المنتظر ويتخيلون أنهم يلمسون حولهم أشراط الساعة من عموم الفساد وسوء الحال وغلبة الكفر على الايمان ، وقد شهدوا انتصار صاحبهم على الجيوش التى حسبوها من قبل قوة لا تغلب فكان هذا حسبهم من دليل على صدق دعواه ، ومن بقى من دهمائهم منكرا لهذه الدعوى فانما كان ينكرها لأنه يأتم بامامة لا تقبلها ولا تقول فى علامات المهدية بقولها ، ومنهم أتباع الميرغنية والسنوسية والتجانية ، وبعضهم كان يستمع الى فتاوى العلماء خارج السودان بانكار هذه المهدية ٠

ويبدو أن صاحب الدعوة قد توطدت فى نفسه الثقة برسالته مما عاينه حوله من دلائل الايمان به وانتظار الفلاح على يده ، فأكثر من كتابة الكتب الى الأمراء والملوك يدعوهم الى تصديقه وينذرهم عاقبة الكفر به ، وأشفق أن يلتقى أتباعه خارج السودان بمن يشككهم فيه فحظر الخروج وحرم الذهاب الى الحج وأقنعهم بكفاية الحج الى مقامه ، ومن أمثلة كتبه التى كان ينشر بها رسالته وله فى منشور عام : « ٠٠ أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لى على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن ، وكذلك جعل لى علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوة الا خذله الله ٠٠٠٠ هذا وقد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة فى

حالة الصحة وأنا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون ، بل متصف بصفات العقل أقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فيما أمر به والنهي عما نهى عنه ٠٠ » ٠٠ وليكن فى معلومكم أنى من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى حسنى من جهة أبيه وأمه ، وأمى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسى ٠٠٠ والعلم لله ان لى نسبة الى الحسين ؛ ٠٠ »

ولم يطل بقاء محمد أحمد بعد سقوط الخرطوم فأصابته حمى التيفوس وتوفى صيف سنة ١٨٨٥ ، وكانت آخر كلماته « ٠٠ ان النبى صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله الصديق خليفة لى وهو منى وأنا منه فأطيعوه ما أطعتمونى ٠٠ استغفر الله » ٠

٣ ـ القادياني :

كان من أسباب ذيوع الأخبار عن مهدى السودان فى البلاد الأسيوية ، ولا سيما الهند والصين ، أنه هزم القائدين هكس وجوردون ، وكان اولهما من قواد الجيش الانجليزى الذين اشتركوا فى قمع الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ وثانيهما من الضباط الدوليين الذين اشتركوا فى تدريب الجيش الصينى على النظام الحديث وقمع الثورة على حكومة بكين ٠

فلما قتل هكس وجوردون فى حروبهما مع مهدى السودان طارت الأنباء بوقائعه الى كل مكان وخشيت الحكومة البريطانية عاقبة الايمان به ولما تهدأ عقابيل الثورة فى الهند ـ فكان هذا على الأرجح باعثا من بواعث عطفها على الحركة القاديانية الهندية عسى أن يكون الايمان بصاحبها ميرزا غلام أحمد صارفا للقوم عن تصديق المهدى السودانى ومعززا للعقائد الحديثة التى كان يبثها بين أتباعه وقوامها اسقاط فريضة الجهاد بالسيف وايجاب الجهاد بالاقناع والبرهان ٠

وقد كان مولد ميرزا غلام أحمد سنة ١٨٣٩ بقرية قاديان من أسرة عريقة آلت بها الحال الى الخمول والفاقة بعد الثورة ، فتعلم فى مكتب القرية وعمل فى وظيفة حكومية صغيرة ، وشب وهو يسمع الأقاويل عن كرامات أبيه ومنها أنه كان يعرف المولود من أبنائه قبل أن يولد ويسميه باسمه ، وقد سمى أبناءه جميعا باسماء النبى والقاب الأمراء ، فمنهم سلطان أحمد ومحمود وبشير أحمد وولى الله ومبارك أحمد ، وبنت تسمى بعدة أسماء من أسماء نساء آل البيت ٠

نشأ الغلام منقبضا عن الناس جانحا الى العزلة ومطالعة الأسفار القديمة من كتب الشيعة والسنة وكتب الأديان الأخرى ٠ وقد لقى فى سياحاته من أنباه بموافقة أحواله وأحوال زمنه لعلامات المهدى المنتظر وجعل من هذه العلامات خسوف القمر وكسوف الشمس وانتشار الوباء وخروجه من المشرق وسبق الدعاة الكذابين لدعوته ، ولم يقصر علاماته على الكتب الاسلامية بل ذكر منها ما جاء فى الاصحاح الحادى والأربعين من سفر أشعيا ٠ وفى «الجاماسى» من كتب المجوس ، فلما حدث الخسوف والكسوف فى شهر رمضان (سنة ١٨٩٤) ميلادية كانت هذه الآية عنده وعند أتباعه برهانا من الله على أنه هو صاحب الزمان الموعود ٠

وقد زعم أنه المسيح المنتظر وألف كتابا سماه « البراهين الأحمدية » على حقية كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية ، وفسر ظهور المسحاء الذين يظهرون بعد الاسلام بأنهم هم الأولياء ورثة الأنبياء ، وقال أنه محدث ٠ ولم يثبت أنه ادعى النبوة وانما دعواه على قول الأكثرين من أتباعه أنه مجدد القرآن الرابع عشر للهجرة ، وقد جاء فى باب ازالة الأوهام « لا أدعى النبوة وما أنا الا محدث » قال فى منشور ابريل سنة ١٨٩٧ « لعنة الله على كل من ادعى النبوة بعد محمد » ٠

ومدار الرسالة القاديانية كلها على التوفيق بين الأديان وتدعيم السلام بين الأمم ، وفى كلام القاديانى ما يشبه القول بالحلول فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخير عند البراهمة كما يتلبس بأرواح غيرهم من الصالحين ، وقد توفى سنة ١٩٠٨ فانقسم أتباعه الى فريقين : فريق يسمى الأحمدية وهم الذين يؤمنون بامامته ولا يؤمنون بنبوته ، وفريق يسمى القاديانية وهم القائلون بنبوته وحجتهم التى يقابلون بها عقيدة الاسلام فى ختام النبوة بعد البعثة المحمدية أن « خاتم » التى وردت فى القرآن الكريم انما وردت بفتح التاء بمعنى الزينة ... وينكرون قراءة ورش بكسر التاء متشبثين بقراءة حفص عن طريق عاصم ، ولكن الفرقة الأخرى تورد من كلامه ما يبطل دعوى النبوة على غير معنى المجاز وتستشهد بآخر كلامه فى حقيقة الوحى ونصه بالعربية « .. وما عنى الله من نبوتى الا كثرة المكالمة والمخاطبة ولعنة الله على من أراد فوق ذلك أو حسب نفسه شيئا أو أخرج عنقه من الربقة النبوية ، وأن رسولنا خاتم النبيين وعليه انقطعت سلسلة المرسلين فليس من حق أحد أن يدعى النبوة بعد رسولنا المصطفى على الطريقة المستقلة وما بقى بعده الا كثرة المكالمة وهو بشرط الاتباع لا بغير متابعة ... » . .

ويبدو أن الفرقة القاديانية كانت أقرب الفرقتين الى هوى الدولة البريطانية ، لأنها لم تكن تعارض الحكومة ولم تتورع عن اشتراط الطاعة لها على من يدخلون فى زمرتها ، وقد كتب أحدهم فى كتاب فارسى باسم « تحفة شاه زاده ويلز » يقول فيه وهو يدعو ولى العهد الى الاسلام : « .. ان هذه التحفة تقدم اليك من الجماعة التى صبرت على مصائب شتى ثلاثين سنة أو أكثر على أيدى أعدائها وذويها من جراء ولائها لجدتك الموقرة الملكة فكتوريا ثم جدك العظيم الامبراطور السابق ادوارد السابع ثم والدك الجليل الامبراطور الحالى ، ولم تكن قط طالبة مكافأة حكومية وما زال منهج هـذه الجمـاعة من يوم تأسيسها أن تطيع الحكومة القائمة وتنكب عن جميع أنواع الفتنـة

والفساد وأن مؤسسها عليه السلام كان وضـــع شرطا من شروط المبايعة التى لا تسمح لأحد أن ينضم اليها الا على عهد العمل بها ، وهو أن تطاع الحكومة القائمة » ·

ويعتذر أصحاب هذه السياسة برعاية الضرورة والتوســـل بسلطان الدولة الى تيسير الدعوة ، ولكنها قوبلت بالنقد الشديد من أتباع القاديانى أنفسهم بعد نشاط نهضة الاستقلال وقيام الدعاة الى نصرة الخلافة ، وكان لهذا الانقسام السياسى أثره الأكبر فى تفرق أتباع الطائفة الى أكثر من فرقتين ، على كونهم جميعا لا يزيدون على مائة ألف أو نحوها ، ولهم مع هذا التفرق ايمان وثيق بصدق دعوتهم ودأب عظيم على نشرها فى العالم بمختلف اللغات ·

تعقيب

أولئك المهديون الثلاثة أنماط متقاربة للدعوة المهدية فى عصر الاستعمار ، يتشابهون أو يختلفون على حسب ما أحاط بهم فى بلادهم من دواعى الاستعمار وموانعه ، وعلى حسب المذهب الذى توارثوه من أسلافهم والتربية التى هيأت أفكارهم وعقائدهم ، فهم أبنـــاء ماضيهم وحاضرهم فى مواضع الشبه بينهم ومواضع الخـــلاف ، ولا يلوح لهم فى الوقت الحاضر مستقبل يرتبط بمستقبل الاسلام غير ما انتهوا اليه ٠

ونحن كلما أمعنا فى استقصاء سيرتهم وما تأثروا به من أحوال زمانهم ــ بدا لنا أن التاريخ يظلمهم اذا وصفهم بالدجل المتعمد وفرغ منهم على هذه الصفة ، فانهم على الأغلب الأعـــم من ظواهرهم مسوقون الى دعوتهم على الرغم منهم ، وربما انساقوا اليها وهـــم مؤمنون بها ثم دار بهم دولاب الحوادث دورته التى لا فكاك منها ، فاستعصى عليهم الفكاك من وثاقه وأصبح الرجوع عن الدعوة بعـــد ذلك أخطر عليهم وعلى أتباعهم من المضى فيها ٠

يفيض العصر الذى ينشأون فيه بحوافز الترقب والأمل واليقين بالتغيير الذى لا محيض منه ، وقد تكون عوامل هذا التغيير موصوفة لديهم بارزة لهم فى الصورة التى يتخيلونها كما تبرز صور السحاب لمن يحاول أن يرتق فتوقها على مثال مرسوم ٠

وبين هذه الهواجس والقلاقل تنمو النفوس القلقة المتشوفة ،

فيتفق حتما لزاما أن يكون منها من يتعلق بالغيوب ويروض عقله على استطلاع خفاياها وتطول مناجاته لنفسه وتساؤله عن واجبه ، فيخطر له أنه مندوب لأمر جسام يروقه أن يصبح أهلا له ويخيفه أن يكون هو المقصود به ثم ينكل عنه خوفا من نبعاته وأهواله ، وكلما طالت به المناجاة والتساؤل تمكن الخاطر منه وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة والاستعداد ، عسى أن يلهمه الغيب سبيل الرشاد ويجلو له حقيقة الأمر الذى هو فى ريب منه ، واذا احتجبت عنه آيات الالهام فترة فليس بالعجيب فى هذه الحالة بين الأمل والخوف أن يذكر فترات الحيرة التى مرت بالرسل الكرام ويحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص فى انتظار الموعد الموقوت ، وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينفضها عنه ببارقة رجاء وكلمة تشجيع فيتشبث بها ويستصعب اهمالها ، وما أسرع النفس الى التشبث بأمثال هذه العلالة فى أمثال هذه المآزق والأزمات ٠

ثم يخطو الخطوة الأولى فلا يعدم من يخطوها معه ويسبقه الى ما بعدها ، ثم تدفعه المصادفات تارة وتصده تارة حتي يتوسط الطريق وتنسد وراءه شيئا فشيئا منافذ الرجوع ، ان فكر فى الرجوع ، ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث فتوحى اليه أمرها بحكم الضرورة قبل أن يوحى اليها ، فان خامره شك فلعله يحسب فى هذه المرحلة أن المصلحة فى التقدم أكبر وأضمن من المصلحة فى التراجع والنكوص ، ويزعم لضميره أنه انما يريد الخير ولا يحاسبه الله الا بما نواه ٠

على أن العبرة من هذه الحركات جميعا أن ضجتها أعظم جدا من جدواها ، وأنها تجشم الأمم كثيرا ولا تنفعها ببعض ما تتجشم من أهوالها ومتاعبها ، وتنجلى الغاشية وقد حبطت الحركة فى أول أغراضها وأضافت نحلة جديدة الى النحل التى أرادت أن تمحوها وتدمجها فى كيانها ، وقد تنشعب الحركة شعبا شتى بين أتباعها

ومريديها وهى لم تتحرك أول الأمر الا على أمل التوفيق بين النحل التى تنازعت ضمائر الناس قبلها ٠

ولو وضعت كل هذه الدعوات فى الميزان لرجحت عليها جميعا دعوة التعليم والتقويم وهى أقلها ضجة وأطولها أمدا وأبقاها ثمرة ٠٠ ففى كل ما أجملناه من الدعوات ونهضات الاصلاح لم ينتفع الاسلام بمنفعة محققة أثبت وأعظم من منفعة التعليم على هدى العقيدة النيرة والخلق المكين ، ولم يخدم الاسلام أحد فى العصر الحديث كما خدمه المعلمون من طراز أحمد خان وجمال الدين ومحمد عبده ، ويشبههم فى النفع بين أهل البادية دعاة السلوك الحسن والاستقامة من أصحاب الطرق المخلصين ٠

وخير خدمة للاسلام تجلت لنا فى ضوء تجاربه من مطلع القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين هى الخدمة التى تكفل للمسلم أن يؤمن بعقيدته ولا يتخلف عن عصره فى علومه ومعارفه ومقتضيات أعماله ، ـ أو هى خدمة التوفيق بين الدين وعلوم التقدم ، وغاية ما تلاحظ على أساليب التوفيق أننا لا نستصوب التعجل بتفسير الكتاب على الوجوه التى تتراءى لأول وهلة من نظريات العلم وفروض العلماء المحدثين ، لأن النظريات تتبدل وشواهد الواقع تتراءى فى كل حقبة على غير صورتها فى الحقبة التى تسبقها أو التى تليها ، ومثال ذلك تفسير السماوات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، وقد ينكشف كما انكشف فعلا بعد سنوات أن السيارات والنجيمات عشر ولا حصر للشهب الصغار التى تشرق وتغرب فى هذا المدار ٠

وعبرة الدعوات جميعا منذ أواسط القرن التاسع عشر أنها تنحصر فى كلمتين قال بهما رائد الهند وامام مصر ، وهما العلم والايمان ٠

الدعوات ونهضـات الاصـلاح
فى منتصـف القـرن العشرين

تعدد المقاييس التى يقاس بها تقدم الأمم ، ويأتى فى طليعتها مقياس الحرية ومقياس الحضارة ومقياس الحالة النفسية ٠

وبهذه المقاييس جميعا تبدو دلائل التقدم على الأمم الاسلامية عند المقابلة بين ما كانت عليـه فى منتصف القرن التاسـع عشر وما صارت اليه فى أواسط القرن العشرين ، وتبدو هذه الدلائل كذلك بارزة بينة عند المقارنة بين ما هى عليه الآن وبين ما كانت عليه فى أوائل القرن منذ خمسين سنة ٠

فالمسلمون الذين يعيشون فى بلاد مستقلة أو شبهة بالمستقلة ، يزيدون على خمسة أضـعاف المسلمين الذين يخضعون لحكم دولة أجنبية ٠

ومهما يكن من شأن الاستقلال الواقعى أو الشكلى فمن الغباء أن يقال ان الاستقلال كعدم الاستقلال كائنا ما كان ، ومن الحذلقة أن يستشهد على ذلك بخضوع الأمم المستقلة كثيرا او قليلا لسلطان الدول القوية بحكم الضعف أو الاضطرار ٠

فالصبى القاصر يخضع لوصاية وليه ، والرجل الراشد لا يفعل كل ما يريد ولا يزال فى حياته الراشدة خاضعا لذوى السلطان عليه بحكم الضعف أو الاضطرار ، ولكن لا يقال من أجل هذا أن الصبى والرجل الراشد سواء لأنهما ، كليهما ، لا يعملان كل ما يريدان ٠

وقد خرج معظم الأمم الاسلامية من ربقة السيادة الأجنبية وأصبحت لها مشيئة الى جانب مشيئة الأقوياء • أو أصبح الأقوياء مضطرين الى التماس الحيلة والذريعة للتوفيق بين المشيئتين ، وهذه خطوة فى الطريق لابد منها قبل ما يليها من الخطوات •

أما الأمم التى لا تزال خاضعة للسيطرة الأجنبية ففى كل منها نهضة قومية ووعى متيقظ يقلق المسيطرين عليها ، وتنبئنا حوادث الماضى القريب أن السيطرة ترجع الى الوراء مع الزمن ، ولا ترجع اليقظة بعد المسير ولو الى غير شوط بعيد •

فى آسيا ظفرت أندونيسية باستقلالها ولا تزال أمامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها ازدحام السكان وشيوع الأمية وحاجة الأمة الى الخبراء الكثيرين فى الادارة وتدبير الثروة وانفصال بعض أجزائها وتنازع الآراء والأحزاب على سياستها •

وقد ظفرت الباكستان بكيانها السياسى ولا تزال أمامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها تباعد شطريها وحاجتها الى موارد الماء فى كشمير ، وخلافها مع الهند ومع الأفغان •

وفى الصين عشرات الملايين من المسلمين منيقظون يشعرون بخطر واحد وحقوق واحدة ، وعلى التخوم بين الصين والهند ملايين آخرون خاضعون لسلطان الدولة الروسية يخشون على ضمائرهم كما يخشون على ديارهم ومعالم أوطانهم ، وتقوم الأفغان وايران مستقلتين الى جانب هذه الأمم وفى كل منها كفايتها وفوق كفايتها من مشكلات السياسة والمعيشة •

ولا خطر من جميع هذه المشكلات •

ولن يجىء اليوم الذى تستريح فيه الأمم من أمثال هذه المشكلات أو تعيش فيه حقبة من الزمن بغير مشكلة كبيرة أو صغيرة •

انما الخطر الأكبر أمة بغير ايمان وبغير معرفة ، فاذا بقى للأمة ايمانها ومعرفتها فكل ما أصابها بعد ذلك هين مأمون العاقبة بعد حين ٠

وليس الخطر كله من الأعداء ٠ وليس كلــه من الأصــدقاء أو الأبناء ٠

فقد يجىء الخطر على الايمان من غلاة التجديد ، وقد يجىء الخطر على المعرفة من علاة الجمود ، وقد يتقابل هؤلاء وهؤلاء على قــوة واحدة فيسرى الى الأمة شــلل لا تنفــع معــه المعــرفة ولا ايمان ٠

ومن وجوه الرجاء ، أو العزاء ، بين المشكلات الجســـام التى تستقبلها الأمم الاسلامية أنها لا تحمل العبء كلــه ولا تنفرد بالعمل على دفعه أو تخفيفه ، لأن سنن الحوادث أن تأتى بالنجدة كما تأتى بالعقبة ، وأن العامل لا ييأس من مفاجآت الغيب وان كان لا يأمن الغدرات من تلك المفاجآت ٠

لقد كان على أندونيسية شــوط بعيــد من هولندة وشــبكة الاستعمار التى تمكن لها فى مستعمراتها ، ثم ابتليت هولندة باليابان فأجرجتها ، ثم ابتليت اليابان بالهزيمة فخرجت مكرهه وتركت سلاحها للثوار فى سبيل الحرية ، ثم اضــطر المنتصرون من امريكيين والانجليز الى مداراة الشعوب الأسيوية ونفس بعضهم على بعض أن تخلف هولندة على تلك الغنيمــة الضــخمة ، فاذا بالاستقلال يسعى الى اندونسية كما سعت اليه ٠ ثم تبقى الكفايه لمشكلات الحكم والمعيشة وهى لا تعضل قوما كأبناء تلك الأمة كادوا أن يستأثروا بالتجارة والملاحة فى بحار الهند قبل زحف المستعمر عليهــا ٠

وكان على الباكستان شـوط بعيـد مع الدولة البريطانيـة والكثرة البرهمية ، ثم تغير الموقف فى القارة الأسيوية بعد هزيمة اليابان وبعد كساد التجارة البريطانية فى المشرق وبعد التزاحـم الجديد بين الروسيين والأمريكيين على القارة فى شرقها الأقصى ، فاذا بالاستقلال يسعى الى الباكستان كما سعت اليه ، ثم تبقى مشكلة كشمير وتبقى بازائها صناعة فى الهند تتوقف على الباكستان وصناعة فى الباكستان تتوقف على الهند ، ومصلحة مشتركة تلجىء الجانبين الى المصالحة ، وخطر من جانب الصين الشيوعية يفتح الأعين هنا وهناك ·

وثمة عامل جديد فى سياسة الدولة القوية لم يكن له خطر قبل منتصف القرن العشرين ، وذلك هو عامل العقيدة فى المجتمع ·

فلم تكن دولة من دول الاستعمار تبالى شيئا بعد غلبتهـا العسكرية والسياسية على بلد من البلاد المستضعفة · ولكنها اليوم تبالى ما يعتقده الشعب وتعـلم أن هـذه العقيـدة عامل هام فى الترجيح بين المستعمرين من كتلة المشرق وكتلة المغرب ··· وقد تعودوا المبالاة بالاسلام وما تحتويه عقيدته من المقارنة أو المسالمة للمذاهب الأجتماعية ، فليست السـطوة بقوة السياسـة أو بقوة السلاح هى كل ما تباليه الدول الكبرى فى منازعاتها ، وقد يخافون من هذه السطوة أن تدفع بالمسلمين الى جانب وتصرفهم عن جانب ، سيبنون علاقاتهم بهم على هذا الأساس ·

والفرق بين الكتلتين أن الأمريكيين والانجليز لا يستطيعون أن يجعلوا الأمة المسلمة امريكية أو انجليزية · أما الكتـلة الشرقيـة فاذا جعلت أمة من الأمم شـيوعية لم تكترث بعـد ذلك بجنسـها وعقيدتها ، لأن الشيوعية تبطل الأوطان والأديان ·

* * *

وفى أسيا دولتان قديمتان هما ايران وتركية ، وكلتاهما فى شقة الصدام بين الكتلتين ، يحميهما هذا الصدام أن تقعا فى قبضة هذه أو تلك ، ولكنها حماية مانعة وليست بالحماية العاملة ، فلابد من سند لها فى بنية الأمة ولابد من قيام هذا السند من الايمان والمعرفة ·

ويقال اليوم أن تركية تعود الى الدين بعد ثورة مصطفى كمال على تقاليدها الدينية ، ولكن تركية فى الواقع لم تفارق الدين حتى يقال انها تعود اليه ، وكل ما حدث أنما هو تغيير فى مراسم الحكم لم يتغلغل قط الى ضمير الأمة ، وقد يكون الاعتدال بين ثورة مصطفى كمال وتقاليدها الجامدين أصلح لتركية من أيام الخلافة المتداعية وأيام الثورة الكمالية الأولى ·

اما الأمم الغربية فقد وضع لها الغرب اسفينا فى صميم بنيتها يوم أقيمت بينها دولة اسرائيل ، ولن تؤمن العقبى ما بقى فيما بينها هذا الصدع الوبيل تتسلل منه المفاسد والمطامع الى جوفها ·

ولكن اسرائيل على قوة الدول التى تسندها لا تعيش ولا تتمكن فى موضعها بين أمم تقاطعها وتبعد المسافة بين مواردها ومصادرها ، وباب الأمل فى هذا الجانب أن المصير لا يعدو حاله من حالتين : اما أن تسيطر اسرائيل على أمم العرب ونهضتها ، واما أن تنخذل دون هذا المطلب العصى فتنهار أو تقبع فى أضيق حدودها ، وأصعب هاتين الحالتين سيطرة اسرائيل على أمم ناهضة تتقدم ولا تنكص على أعقابها ·



والاسلام فى القارة الأفريقية يشغل شواطئها على البحرين الأبيض والأحمر وعلى المحيطين الأطلسى والهندى · فكل الشواطىء

الأفريقية يقطنها مسلمون ما خلا الجانب الغربى الى الجنوب ، ويتخللها المسلمون فى جوف الصحراء الكبرى كما يتخللونها فى أواسطها من السودان الى أعالى النيل ٠

وتنصب قوة الاستعمار كلها على القارة الأفريقية فى الوقت الحاضر ، فعلى الاسلام عبء كبير ينهض به فى وجه هذا الاستعمار ٠

ومهما يكن من تفاوت القوى المتنازعة فى هذه القارة فليس السؤال هنا : من يقدر على الغلبة ؟ بل هو من يقدر على البقاء بعد طول الصراع ؟

ونخال أن الجواب لا يقبل الخلاف ، فلن يبقى المستعمرون ويزول أبناء البلاد ، ولن يستطيع المستعمرون مهما عملوا أن يخرجو أبناء البلاد عن أجناسهم وعقائدهم ليدمجوهم فى غمارهم أفريقيين « متربين » ٠

وقد تطول المسافة على الشعوب الأفريقية قبل بلوغ المرحله التى تخرج الاستعمار ، ولكن الاستعمار يحمل من جراثيم الفناء ما يعاون المنكوبين به على الخلاص منه ، وليس اللازم أن يتساوى الافريقيون والمستعمرون فى العلم والثروة والحلول والحيلة ، وانما اللازم أن يضيق المستعمرون بقهر الافريقيين ، وقد يضيقون بهم قبل أن يتساوى الفريقان فى هذه الصفات بزمن طويل ٠

ومصر ــ فى طليعة الأمم الأفريقية ــ تمضى قدما الى هذه المرحلة وتقترب منها حقبة بعد حقبة منذ أوائل القرن العشرين ٠ فلم تمض من هذا القرن عشر سنوات متعاقبة دون أن تتدرج فيها من حالة الى حالة افضل منها ، فخرجت من السيادة العثمانية ثم

خرجت من الحماية البريطانية ثم تخلصت من حكم الملكية الرثة التى صار بها الزمن الى اسوأ أطوارها فى عهد فاروق وبيب الفساد ، ابن أحمد فؤاد صنيعة الحماية ، ابن اسماعيل رائد الخراب والاحتلال ، واذا أطردت مراحلها عشر سنوات بعد عشر سنوات على هذه الخطى فليس الرجاء فى مرحلتها التى تقود فيها القارة الأفريقية ببعيد ٠

وعلى شواطىء البحرين الأبيض والأحمر امم من هذه القارة تتيقظ وتتحفز ويوشك أن تبلغ المرحلة التى تعنت فيها الاستعمار كما يعنتها ، ومن آمالها وحدة المغرب ووحدة وادى النيل ، وأيا كان مآل هذه الآمال فى عالم السياسة فمناط الأمر كله أن يتم لها حظ الأمم المستقلة فى المعرفة والكرامة ، وكل وضع من أوضاع السياسة بعد ذلك مرضى ومقبول ٠



فى نظــر الغــرب

منذ القرن الأول للهجرة لم يعرف العالم حقبــة من حقب التاريخ خلا فيها الغرب ممن تهتمون بالاسلام على نحو من الانحاء ، ولكن الذى يعنينا فى هذه العجالة هو اهتمام الغرب بالاســلام فى عصر الاستعمار ، وقد كان على الأغلب اهتماما يروده الباحثون من وجهة النظر العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية ، فلم يهتم الغرب بالاسلام قط من وجهة نظر عامة أو من وجهة نظر علمية فى القرن الثامن عشر أو القرن التاسع ، وانما التفت الغربيون الى دراسة الاسلام من هذه الوجهة ـ وجهة النظر العلمية ـ منذ أوائل القرن العشرين ، وهى مع هذا لا تخلو من غرض وان تخفى الغرض فيها أحيانا وراء نقاب ٠

فمن أواخر القرن التاسع عشر الى اليوم تقوم الجامعــات والمعاهد فى هولندة وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة لدراسة أحوال المسلمين وأسرار العقيدة الاسلامية على أضــواء العــلم الحديث ، وينشىء بعض الجامعات كراسى لهذه الدراسة أو قاعات لالقاء المحاضرات وانتداب المختصين لالقــاء ســلاسل من هــذه المحاضرات سواء كانوا من الأساتذة فيها أو ممن يعملون فى الجامعات الأخرى ٠

وسنجمل فى هذا الفصل أقوالا متفرقة من مباحث المختصين الذين صوروا الاسلام للغرب كما فهموه ، فاننا اذا عرفنا كيف يفهموننا عرفنا كيف يكون موقفهم منا وكيف يكون موقفنا منهم ، ولو كانت المحاولة « علمية » تدور عليها دراسات علماء ·

افتتحت جامعة شيكاغو قاعة محاضراتها الاسلامية منذ نحو خمسين سنة (١٩٠٦) فحصر المحاضر الأول ـ دنكان بلاك مكدونالد ـ أهم الموضوعات التى يمكن أن يدور عليها البحث فى ثلاثة ، وهى الشخصية المحمدية ، ومدارس التصوف ، وأطوار الأمم الاسلامية فى حركة التجديد ·

وصفوة ما انتهى اليه فى هذه الموضوعات الثلاثة أن الشخصية المحمدية لا تزال بعد أربعة عشر قرنا مصدر المدد المتصل فى تقوية المسلم ، وأن الصوفية قد خلقت منفسا للعقيدة الفردية التى يدين بها المسلم المستقل بتفكيره واعتقاده عن سلطان الشيوخ وسلطان الجماهير ، وأن أطوار المسلمين تختلف اختلافا لابد منه بين أناس ينتمون الى كل جنس وكل أصل من الأصول البشرية ، ولكن الاسلام قد أوجد بينهم أخوة عامة قل أن يوجد لها نظير فى اتباع الكنيسة الواحدة ، وقد طبعت هذه المحاضرات بعنوان « الموقف الدينى والحياة الدينية فى الاسلام »(١) ·

ومن الدارسين لموقف الاسلام فى القرن العشرين المؤرخ الكبير أرنولد توينبى Toynbee فى محاضراته عن « العالم والغرب » التى ألقيت سنة ١٩٥٢ وفى محاضرات أخرى عن حركة التجديدات التى سماها بالهيرودية وحركة التجديد المقابلة لها التى سماها بالآسية ·

---

(١) The Riligious Attitude and Life in Islam by Macdonald

وعند توينى أن المسلم يواجــه الغــرب اليوم كما واجه الاسرائيل حضارة رومة واليونان قبل ألفى سنة ، ولا يعنى بذلك أنه جامد على أساليب ذلك العصر بل يعنى أن المســلمين من يقــاور الحضارة الأوربية بالاقتباس منها كل كما فعل هيرود فى عصر السيد المسيح ، ومنهم من يقاوم بالمحافظة الشديدة والاصرار على القديم بنصه وحرفه ٠

وقد ذكر الانقلاب التركى وما تلاه من الحركة الكمالية نحو الغرب ، فقال ان التجديد التركى قد تطور هذا التطور لأن التجديد كله قد بدأ من ناحية العسكريين على أثر الهزائم المتوالية التى منيت بها الدولة العثمانية فاتخذ صبغة التنفيذ العسكرى بعد الهزيمة الأخيرة فى الحرب العالمية الأولى ٠ لأم قال ما فحواه أن النظام العسكرى قد اقترن بالنظام النيابى الذى علقت جذوره على ما يظهر بالتربية الاسلامية ، وفضل العقلية الاسلامية على العقلية الأوربيه فى أخوة الدين ٠ فانها فى هذا العصر الذى تقاربت فيه المسافات قمينة أن تحشد الاسلام صفا واحــدا أمام غزوات الشــيوعيين ، وقد نوه بالرسالة التى تؤديها اللغة العربية فى هذا الموقف وهى لغة الكتــابة على اختــلاف اللهجــات بين مراكش وايران ومســقط وزنجبار ٠

* * *

وصنف الأستاذ جب Gibb أستاذ العربية بجامعة أكسفورد عدة رسائل تدور بالتفصيل أو بالاجمال على هذا الموضوع ٠

وملاحظته الأولى هى أن التجديد فى الاسلام يبدأ من جانب « العلمانيين » أو الدنيويين خلافا لتجديد الغرب الذى يتولاه رجال الدين ، وأن المسلمين العصريين يعتمدون على مكانة الامام محمد

عبده لتسويغ جهودهم التى لا يرضى عنها الجامدون كلما حاولوا التقريب بين الاسلام والحضارة الحديثة ، وتعليل ذلك عنده أن المسلم المتعلم على المنهاج الأوربى هو الذى يعرف ما يستفاد من علوم الغرب وحضارته ، وهو منهاج لم يفتح أمام الشيوخ قبل الجيل الجديد ٠

ويرى الأستاذ جيب أن التجديد ينتشر فى العواصم وقلما يسرى الى الأقاليم النائية فى جوف البلاد ٠

ويلاحظ أن المجددين فى مصر قد يتأولون الأحاديث النبوية ولكنهم لا يجترئون كما اجترأ بعض مجددى الهند على المناقشة فى التنزيل ولا سيما المناقشة حول تنزيل القرآن بلفظه أو معناه ، ولم يعلل الأستاذ جب هذا الاختلاف ولم يذكر له أمثلة كثيرة فى الهند أو غيرها ، ولكننا نظن أن خاطر التنزيل بالمعنى انما يخطر لمن يتعودون أن يفهموا القرآن بمعناه أو يترجمون هذا المعنى مع قراءاته بالحروف العربية ، وقليل جدا مع هذا من يعلق التجديد بهذا الضرب من التأويل ٠

* * *

وممن ألفوا عن الاسلام فى الهند خاصة الأستاذ ولفرد كانتويل سميث welfred Cantwell Smith مدرس التاريخ الاسلامى بجامعة عليجرة ٠

وأهم ما لاحظه أن دعاة التجديد يهتمون باثبات « قابلية الاسلام » للتحضر والتمدين ، ويشيدون بفضله على حضارة الغرب من عهد دخوله الأندلس الى عهد الحروب الصليبية ، وأن بعض المجتهدين — وسمى منهم أبا العلاء المودودى — يؤمن بأن الاسلام

نظام الكون ، وان العالم العلوى يمشى على نظامه فيصح أن يقال عن الشمس والقمر والكواكب أنها كائنات مسلمة ، بل يصح أن يقال عن تكوين الملحد نفسه أنه فى « كيانه الجسدى » يتبع نظام الخلق فيتبع من ثمة أحكام الاسلام ٠

وينزع الأستاذ سميث الى التفسيرات الاقتصادية فى عقائد الطبقات ، فيقول ان « الشخصية البنوية » هى مدار العقيدة حيث يلتمس المسلم فى العصر الحاضر « مثـلا أعلى » لمسـلكه وأدبه وقواعد خلقه ، وان المساس بالنبى عليه السلام يثير المسلم أشد من ثورته على من يمس الربوبية ، ولا يقصد بذلك أن مقام النبوة أعظم عنده من مقام الاله فهذا ممتنع كل الامتناع فى الاسلام ، ولكنه قد تعود أن يسمع بالملحدين المنكرين لوجود الاله ولم يتعود أن يواجهه أحد بالقدح فى نبيه ولو لم يكن من المتدينين بدينه ، وهذه الحركة الواسعة قد عرفت خاصة بتعظيم شخص الرسول صلوات الله عليه حتى سميت باسم حركة « السـيرة » وأصـبح قوامها الاعجاب والاقتداء بسيرة النبى فى حياته الخاصة والعامة ، وهنا يستطرد الأستاذ الى تعليلاته الاقتصادية فيقول ان الطبقـة الوسطى فى جميع الأمم « فردية » أو معنية بالشخصية الفردية ، ومن ثم اتجه الشعور الدينى عند المتعلمين ــ ومعظمهم من الطبقة الوسطى ــ الى « شخصية » تملك اعجابهم وتقنع المتدين بجدارتها للقدوة والأمانة فكانت « الشخصية المحمدية » هى مدار هذا الشعور وقبلة هذا التفكير ٠

وليس من غرضنا أن نطيل التعقيب خلال تلخيص الآراء الغربية عن الاسلام ، ولكننا نحسب أن الخطأ هنا لا يحتاج الى اسهاب فى التعقيب عليه ، لأن الاهتمام بذوات الأولياء والقديسين يشيع فى كل أمة بين العامة وسواد الناس أشد من شيوعه بين الميسورين المتوسطين ممن يسميهم أصحاب التفسير الاقتصادى

بالبرجوازيين · ونرى أن تعظيم النبى عام بين المسلمين فى هذا العصر ، وأن كتابة السيرة النبوية عامة كذلك بينهم فى كل أمة · فلا عجب أن تعم البلاد التى كان للشخصية الانسانية فيها مكانة بارزة فى كل عقيدة من أقدم العصور ، وهذا عدا ما هو مأثور عن طبيعة الانسان اذ تدرك القداسة متمثلة فى صورة واضحة قبل أن تتمثلها فى عالم التجريد ·

* * *

وبين أحدث الكتب عن الاسلام كتاب الأستاذ تريتون Tritton أستاذ الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ، وقد اختار للمسلم المعاصر مثالين أحدهما هندى وهو الشاعر الصوفى محمد اقبال ، والآخر مصرى وهو الأستاذ الامام محمد عبده ، وهو يحاول أن ينفذ الى طبيعة ادراك الماضى والقديم والجديد فى ذهن اقبال فيقول ان الزمن المطلق عنده كل عضوى شامل لا نتركه خلفنا بل هو يتحرك معنا ويعمل فى حاضرنا · ثم يقول ان الاسلام يعطى كلا من العالمين ـ الدنيا والآخرة ـ حقهما ، وفى وسع المسلم العصرى أن يعيد النظر فى الاسلام كله دون أن ينقطع عن الماضى ، وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة لأن باب الاجتهاد مفتوح لا يزال ·

قال : وقد أدى ضغط الآراء الغربية الى تغيير واحد فى التفكير الاسلامى ، فان المسلمين فى القرون الوسطى كانوا يتجاهلون قواعد التفكير الأخرى فأصبحوا اليوم معنيين بالرد على وجود الاعتراض التى تأتى من غيرهم ، وهم يجتهدون ليثبتوا أن الانسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلغى أرفع تعبيراتها فى شريعة الاسلام وأحكامه ، ويسلمون أن ديانتهم اليوم

ليست على ما يحبون وأن الاصلاح ضرورة لا محيص عنها ولكنهم يصرون على أن الاسلام دون غيره هو الذى يصلح لمطالب النوع الانسانى ، فقد تغيرت الأحوال ووجب أن تتغير معها النظرة الى الديانة ٠ وقد كان أثر الغزالى فى الشيخ محمد عبده قويا يبـــدو واضحا فى فهم الدين على أنه عقيدة باطنة حيوية من شئون السريرة، وأن الشعائر الخارجية ثانوية مضافة اليها ، وقد أخذت طائفة من الذين يدعون على العموم تلاميذ الشيخ تنقاذ لمذاهب الحنابلـه فتجمعت من ذلك دعوة الى رفض البدع المســتحدثة والعود الى سلامة العقيدة الماضية وتضمنت هذه الدعوة برامج اصلاح فى الشئون الدينية والاجتماعية والاقتصادية تثبت قابلية الاسلام للتدين به فى الأحوال الحاضرة ٠٠٠

وهــؤلاء التـــلاميذ يتوجهـــون الى أهــداف مختلفـــة بعضها وطنى قومى وبعضها مدرسى ينظر الى الحرية العقليــة ، وبعضها يقدم الاصلاح الدينى ويعتبره مبدأ لكل اصلاح ، ومنهم من يصبح بانقياده للنزعة الجنبلية محافظا فى بعض الأمور أشد من المحافظين ، وتتصل الصبغة الغزالية عن حياتهم ٠٠٠ وانهم ليعتقدون أنهم معتدلون يتوسطون بين البساطة التى ترجع بقوتها كلها الى التسليم الأعمى فى طوائف الدهماء وبين المتطرفين من دعاة التقدم الذين يجنحون الى الحرية العقلية المطلقة والاتجاه الى الحضارة العصرية ونظم الحكم الحديث والشريعة الوضعية ، ويؤكدون أن الاسلام اذا فسر كما يفسرونه يتكفل بالحل الوحيــد لمشكلات المجتمع والسياسة والدين ٠٠٠ » ٠

وانتقل تريتون الى مسألة الخلافة فقال : « ان الغاء الترك للخلافة صدم العالم الاسلامى وان كانت الخلافة قد صارت منذ زمن بعيد اسما على غير مسمى ، ولكنها كانت عندهم ذات قيمة عاطفية ،

رمنهم من يؤثر ايجاد الخلافة بأية صيغة روحية خادمة للشريعة لا حاكمة مسيطرة عليه ، وانما وظيفته أن يراقب القيام بحكم الشرع ولا يستطيع ذلك بغير سلطان وراءه ، ومثل هذا الخليفة أدنى الى أن يكون كالامام عند الشيعة ، الا أنه لم توجد قط ولا توجد الان أداة معترف بها تتولى اختياره ، وأقرب ما يكون الى هذه الأداة فتاوى الفقهاء بغير صفة رسمية ، وهم لا يعينون بل يرتقون الى مكانتهم بالمعرفة ووجاهة الشخصية كانهم المثل المحسوس لاتفاق الجماعة · ويعتبر الوطنيون الذين يعتقدون أن خلاص الاسلام مرهون باقامة الحكومات المستقلة اناسا من الوجهة النظرية مقترفين لخطيئة التفرقة بين صفوف الجماعة ، ولكن الحكومات المنفصلة قد وجدت قديما دون أن نفصم وحدة الجماعة وليس ما يمنع أن يعود الأمر كما بدأ ويومئذ يصدق على عالم السياسة ما روى عن النبى حيث يقول ان الاختلاف بين أمتى رحمة

« ···· وربما تأثر المسلمون باجلال النصارى للمسيح فرفعوا مقام النبى الى أوج المثل الأعلى وجعلوا الدين محاكاة له فى سيرته ، ولم تزل نظرة المسلمين الى نبى الاسلام تتنوع من حقبة الى اخرى · ولكن النبى نفسه كان يقول انه انما هو رسول وانسان من البشر وليس فى يديه أن يصنع المعجزات » ·

وختم تريتون هذا الفصل قائلا ان الفجوة بين مدرسة التجديد ومدرسة المحافظة لا تزال على اتساع لا يأذن بالمراجعة التى دعا اليها محمد اقبال ، وكلتاهما مع هذا قد تثوب الى القرآن الذى يوحى الى المدرستين ان الله ليس كمثله شىء وأنه اقرب اليهم من حبل الوريد ·

* * *

واشترك نحو عشرة من البـاحثين الغربيين والشرقيين فى دراسات متفرقة عن الثقافة والمجتمع فى أمم الشرق الأدنى Near Eastern Culture and Society فقال أحدهم الأستاذ عبد الخالق عدنان أديوار – وهو تركى – أن حركة التجـديد العصرية بدأت بدعوة ضيا شوق ألب المسماة بحركة « ينى مجموعة » أو الجماعة الجديدة ، وغايتها أن تنشىء فى الاسلام توفيقا كالتوفيق بين المسيحية والحضارة العصرية على مبادىء اللوثرية ، ولكن غلطة شوق آلب كانت على الأغلب غلطة لغوية فى الترجمة ، اذ كان من سوء حظه أنه ترجم كلمة الدنيوى أو العلمانى Laic باللاديني فنفر المحافظون من مذهبه على اعتباره زندقة مناقضة للدين ، فى حين أن الكلمة لا تعنى اللادينية بل تعنى « غير الكهنوتية » .. ولو أنها ترجمت بهذا المعنى لما نفر منها المسلمون لأنهم يسلمون أن ديانتهم خلو من سلطان الكهنوت ، ثم جـاء الانـدفاع فى سـبيل « التغرب » فبلغ من سورته حـدا أخرجـه من الدعوة الفـكريه الى حالة تشبه الحتمية الحكومية فى سبيل « اللادينية » وانقلبت الآية من تعصب قديم الى تعصب جديد لا يسمح بالتمحيص وحريه المناقشة .

ولخص حبيب أمين الكورانى حركات التجديد فى ثلاث دعوات كبرى هى دعوة جمال الدين المنادى بالجامعة الاسـلامية على أساس التقريب صين الاسلام والعلم ودعوة الوهابيين على أساس العودة الى السلف الأول ودعوة الشيخ محمد عبده على أسـاس العمل بمقتضيات العصر كما يسوغها التفسير الحـديث لأحـكام الاسـلام .

وتكلم كويلر يونج Cuylen Young عن ثورة السخط فى ايران على المادية والاباحية وعزاهما الى سوء المعيشة الدنيوية لا الى سوء العقيدة الدينية ، وقال ان تحسين المعيشة ونشر التعليم

خير علاج للمشكلة النفسية مع تذليل صعوبة اللغة المختلفة بين الأقاليم ·

ومن الكتب التى درست الاسلام دراسة علمية على اتصال بمساعى المبشرين كتاب قنطرة الى الاسلام Bridge to Islam لصاحبها ارتيخ بتمان Erich Bethmann وكتاب طوالع الاسلام The prospects of Islam لصاحبها لورنس براون Laurence Browne

أما الأول فيصرح باخفاق التبشير وينعى على الحضارة الغربية أنها نفرت المسلمين من المسيحية ، ويشتد فى نقد الروايات السيمية لأنها أدخلت فى روع المسلم الشرقى أنها تمثل حياة الأمم المسيحية. فنظروا اليها نظرة طالب التسلية ولم ينظروا اليها نظرة طالب الاصلاح ·

وكأنما خشى من أنصار التبشير اعراضا عن المعونة فلام الذين ينصحون بالتحبب. الى الشرق من طريق التعليم والاحسان والتطبيب ، وقال ان الذهن الشرقى مطبوع على التفكير الدينى « الثيولوجى » فهو لا يفهم الاصلاح على غير هذه القاعدة وما لم يكن هنالك حافز دينى فالأمر عنده من الشواغل العريضة التى لا تستحق الجهد ومحاولة التبديل ···· وأنه لرأى فى الحق جد عجيب ، لأنه الرأى الذى ينقلب على صاحبه ويقنع أنصار التبشير بضياع المسعى وخيبة الرجاء فى كل تغيير يتوقف على تغيير العقيدة أو تغيير « الذهن » بما اشتمل عليه ·

وأما لورانس براون فمحاولته كلها متجهة الى تكذيب القول بعقم المساعى التى تبذل فى « تبشير المسلمين ···· وهو لا ينكر أن المسلمين الذين يصبأون عن دينهم جد قليلين ، ولكنه يرى أن المسألة هنا مسألة الطبقة لا مسألة العقيدة ، وأن أبناء البقات

الميسورة من المسلمين كأبناء هذه الطبقات فى جميع الملل والنحل ، قوم قد استقروا على عاداتهم الاجتماعية وعلاقاتهم العائلية فلا مطمع فى تحويلهم عن هذه العادات أو قطعهم لهذه العلاقات ٠ ولكن المطمع كبير فى الطبقات البائسة كما ظهر من نتائج التبشير بين الهنود المحرومين ، وكما ظهر فى رأية بين المنتصرين الهنود الذين يرجح انتماءهم فى الأصل الى أجداد كانوا يدينون بنحلة من نحل الاسلام ٠

وقد ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الاسلام والغرب ثم ترجم الى العربية باسم الاسلام فى نظر الغرب ونشر منذ شهور قليلة ، وقام بترجمته الدكتور اسحق الحسينى من فلسطين ٠

يقول الأستاذ « فيليب حتى » أن الطرفين من المحافظين والمجددين يتباعدون وبينهما جماعة وسطى « تواجه عملية اختيار دائم » يتيسر فى المسائل الفنية والعملية ويتعسر فى مسائل المجتمع ومشكلات المعيشة أو المشكلات الاقتصادية ، ويقول ان المتفرنجين من الترك قد غيروا لباس الرأس ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا ما فى داخل الرأس بمجرد لبس القبعة وخلع الطربوش ، ويختم كلمته قائلا ان الدول العربية ليست جزءا من آسيا ٠٠٠٠ وعلى الغرب أن يقنع تلك الدول التى ترغب فى توطيد التفاهم مع الغرب انها تنتسب الى تلك الثقافة ٠٠ أى الى الثقافة ٠ أى الى الثقافة الغربية ! ٠

ويسهب الدكتور بايردودج المدير السابق للجامعة الأمريكية فى ايراد الأمثلة من تفسيرات الشيخ محمد عبده على المطابقة بين الاسلام والعلم الحديث ، ومن مسائل العلم الحديث التى أشار اليها مسألة التطور والجراثيم ومسائل الاقتصاد التى تتناول المعاملة بالربا وما اليها ، ولكنه يقول ان الناشئة تنبذ فرائض

دينها » ويلوح لى أن هوليورد قد اثرت فى الجيل الحاضر من المسلمين اكثر من تاثير مدارسهم الدينية » ·

ثم يقول : « اليوم وقد أصبحت القومية ذات الصبغة المادية عنصرا قويا فى الفكر الاسلامى والمجتمع ، وهذا يؤدى بالطبع الى مناهضة فكرة الوحدة الاسلامية أو الخلافة وكون الاسلام أخوة منظمة ـ فالقومية قد حلت محل المظهر الدينى للوحدة الاسلامية الى حد كبير ، وغنى عن البيان أن الشبان المسلمين الذين لا يبالون بالاسلام باعتباره نظاما عظيما هم الذين يغلب عليهم اعتناق الشيوعية ··· » ·

وزبدة كل هذه الآراء ، ما كان منها لمحض العلم أو ما كان منها منظورا فيه الى التبشير والسياسة · أن الغربى مشغول بأمر الاسلام شغلان من يشعر بيقظته ويترقب ما وراء هذه اليقظة فلا يخرجها لحظة من حسابه ، واهم ما يهمه ان يتعلم كيف يقف الاسلام غدا من مجاميع الأمم الغربية والشرقية ، وكيف يكون مسلكه اذا التحمت المعسكرات ثم افترقت عن هزيمة هذا وانتصار ذاك ·

ويقابل هذه النظرة ، أو هذه النظرات من الغرب ، نظرة أو نظرات مثلها من جانب المجموعة الأمية التى تسمى بالكتله الشرقية ، وتدل نظراتها جميعا على تناقض غير مطرد فى وجهته · فيرحبون حينا بنشاط القوميات لأنها تفرق بين المسلمين فى البقاع المتقاربة ويرحبون حينا آخر بنشاط الوحدة الاسلامية لأنهم يخشون العصبية القومية ولا ييأسون من تفسير الدين بما يوافق دعوتهم الاجتماعية ·

واذا صرفنا النظر عن « اهتمام البواعث » أو عن الشغلان الذى يبعث اليه حب الانتفاع بهذه المعرفة فى توجيه السياسات وتقدير المواقف الدولية ، فالحقيقة البينة أن الاهتمــام شــامل لجماهير الأقوام غير مقصور على معاهد العلم ومراجع السياسة ، واحدى ظواهر هذا الاهتمام شيوع الطبعات الشعبية من ترجمة القرآن الكريم ، وأبلغ من دلالة هذا الشيوع أن يقول رجل من رجال الدين وهو يقدم المختارات من آى من القرآ أنه اذا لم يكن كتابا فهو صوت قوى حى Strong Living voice .. وهو غاية ما ينتظر ممن ينكر الكتاب(١) .

---

(١) من مجموعة الكتب المقدسة فى العالم للقس بوكيه :
Sacred Books of The World by Bouquet.

آســيا وأفريقيــا

وكل بحث فى مستقبل المسلمية يستتبع البحث فى مســتقبل القارتين آسيا وأفريقيا على الخصوص ؛ لأن تسعة أعشار المسلمين يسكنون هاتين القارتين ، وحولهما تحوم اليوم مطامع الاستعمار والاستغلال والتبشير ٠

وجملة ما يقال فى آسيا أن شعوبها أضخم من أن تبتلع فى بنية شعب آخر ، وجملة ما يقال فى أفريقيا انها أبعد أصلا من أن تندمج فى الغرب وهى قائمة على تربتها ٠

انما ينظر فى هذه وتلك الى عاقبة السيطرة الثقافية ، ولا نعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العلم الحديث ، فان الأمم التى تتقدم فى العلم الحديث لا تقع تحت سيطرة أمة من جراء ذلك ، وقد تتغلب بعلمها على السيطرة الأجنبية ان كانت واقعة فى قبضتها ٠

وانما نعنى بالسيطرة الثقافية ســيطرة العقيــدة من جانب المذاهب الاجتماعية أو من جانب التبشير ٠

ان الدول الكبرى التى تتجاذب سياسة العالم هى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وروسيا الشيوعية ٠

والظاهر أن سياسة بريطانيا فى القرن العشرين أن تتراجع

عن آسيا ، وعن الشرق الاقصى خاصة ، وتترك ميدان السباق فيه للروس والأمريكيين ، ثم تلوذ بمفترق الطرق بين القارات الثلاث فى آسيا الغربية ، أى فى بلاد العرب التى تمتد من العراق الى البحرين الأبيض والأحمر ٠

أما السيطرة الروسية فهى تقوم على نشر الشيوعية ٠ وهى مذهب لا يوافق الاسلام فى أساسه ولكن الاسلام يغنى عنه اذا اتبع المسلمون قواعد المساواة والانصاف وعملوا بأصول دينهم فى التوسط بية التهالك على الدنيا والاعراض عنها ، وينبغى أن نذكر فى هذا المقام أن بلاد الروس وما جاورها هى قطعة من أوروبة أخذتها آسيا من زمن غير بعيد ، وقد يحدث فى المستقبل تكرار لهذه الظاهرة على صورة أخرى ويكون للاسلام شأن كبير فى هذا التكرار ٠

وتتسابق الدولتان الروسية والأمريكية على المناجم وينابيع النفط ونقط الاستحكام فى هذه القارة الواسعة ، ومآل كل ذلك حتما الى أبناء البلاد لأن حبل الزمن أطول من حبل المال وحبال السياسة ، وذلك على شرط واحد وهو الاحتفاظ بكيان الأمة وقوامها ٠ وليس فى آسيا قوة روحية أقدر من الاسلام على حفظ الكيان والقوام للأمة التى تؤمن بدينه ٠

أما بلاد العرب حيث تتراجع الدولة البريطانية فقد أحيطت بحلقات من المشيخات والسلطنات تتعاقد معها بريطانيا على ضروب من الحماية المقنعة ، وتحسب من وراء ذلك حساب المواصلات وآبار النفط ومواضع الاستحكام العسكرى فى حالة الحرب العالمية، ولكنها لا تهمل حساب التبشير ولا تنكر مسعاه فى حمايتها ، وهذه عبارة فى سلسلة السيطرة العالمية تدل على كثير ٠

يقول هارول ستورم فى كتابه الى أين يا جزيرة العرب (١) :

« ان قبائل الجبال وراء ظفار — وهم من سلالة مخالفة كل المخالفة تستخدم لهجات غير عربية كالشحرية والمهرية والبوطهارية والخرسوسية ذ وكل لهجة من هذه اللهجات لا يفهمها المتكلمون باللهجات الأخرى ، قود تمكن العالم اللغوى الالمانى الدكتور مكسمليان بثنر Bethnor من رسم اللهجتين الشحرية والمهرية بالكتابة وهما على ما يلوح لى على قرابة من احدى اللغات الهندية حيث تدل بعض الروايات على هجرة سابقة من الهند الى ظفار ولاتزال ثمة عادات قريبة من عادات الهنود ، وقد اضطرت الى استخدام مترجم بين هذه القبائل حين عشت فى بلادها ، وتبين لى من صعوبة اللغة أن العمل بينها — أى عمل التبشير — عسير ·

« ولما كانت ظفار على بعد خمسمائة ميل من مسقط تحت سيادة سلطانها فكل محاولة لتكوين العمل هنا تستلزم لا محالة رجوعا الى العمل الذى تأسس فى مسقط نفسها ، ويدعو موقف السلطان الودى فى الوقت الحاضر الا الامل فى الانتفاع بهذه الفرصة لانجاز شىء · اذ تتنقل بعثات التبشير بغير عائق فى عمان ويرجى من تعزيز مركز مسقط مزيد من العمل ، وهناك فى داخل عمان قبائل لا حكم عليها للسلطان نجحت بعثات مسقط فى حمل رسالة الانجيل اليها على نطاق أوسع مما تيسّر قبل الآن فى أى مكان » ·

أما القارة الأفريقية فقد احيطت كذلك بحلقات من الجهات الأربع تسيطر عليها الدولة البريطانية ، وتكاد المصنفات الكثيرة

---

(١) Whither Arabia by Harold Storm .

من سلسلة : World Dominion Survey Series.

عن هذه القارة أن تجمع على اعتبارها فى عالم الاستعمار « حظيرة خاصة » ببريطانيا العظمى ، وأحد هذه المصنفات صريح بهذا المعنى فى عنوانه وهو « أفريقية امبراطورية بريطانيا الثالثة «Africa - Britain's third Empire» من تأليف جورج بادمور Padmore .

وقد ظهر باللغة الانجليزية فى السنوات الأخيرة أكثر من مائة كتاب عن القارة الأفريقية ، وبعض عناوينها ينم على مبلغ الأمل والحذر من هذه الجهة التى أحاط بها الظلام الى أوئل القرن العشرين

من عناوين هذه الكتب عنوان « الأمل فى أفريقيــة » لمؤلفه آلبورت • وعنوان « أفريقية الغربية الجديدة » لأربعــة مؤلفين ، وعنوان « الأفريقى اليوم وغدا » لمؤلفه ديديرنج وسترمان ، وعنوان « قضية الحــرية الأفريقيــة » لمؤلفــه جويس كارى ، وعنوان « أفريقية تنهض » لمؤلفه • و•م• مكميلان ، وعنوان « قارة الغد » لمؤلفيه بطرس بن ولوسى ستريث •••• وهكذا عشرات من التصانيف الجديدة تتلوها عشرات •

* * *

وما من كتاب من هذه الكتب خلا من ذكر الاسلام والتحدث عن سهولة انتشاره بين الشعوب الافريقية ، ونحتزى بنماذج من هذه الاشارات للدلالة على السياسة التى توحيها معلومات القوم عن اثر هذا الدين فى مستقبل الافريقيين •

يصف وسترمان دين الاسلام وصفا غريبا يعلل به قابلية الشعوب الفطرية للاصغاء الى دعوته ، فيقول عنه أنه دين مذكر أو دين ذو رجولة Masculine يعجب الافريقى ببساطته وقوته ،

ثم يقول « ان المسلم لا يهبط الى مثل هذا الاقتداء الخاضع الذى يهبط اليه الزنجى الوثنى ، فبينما يفخر الزنجى الوثنى اذا أتيح له أن يلف نفسه بخرقة عتيقة يلقيها الأوربى اليه ويعـرض نفسـه للسخرية بهذه القدوة الهزلية ـ لا يخطر على بال المسلم أن يستبدل ملابس الأوربيين بردائه الفضفاض وقلنسوته السعفية » ·

ويضيف الى ذلك أن الاسلام متى بدأ فى مكان لم ينتظر مددا من الخارج للتوسع فى جوار ذلك المـكان · فمعظـم التبشـير به افريقى لا يحتاج الى معونة من غير الافريقيين ·

وقد ألف الأستاذ نادل Nadel النمسـوى أسـتاذ عـلم البشرية بجامعة النمسا الوطنية ـ كتابا مفصلا عن عقيدة النيوب فى بلاد النيجر وأثر الاسلام فيها قال فيه : « ان الاسلام يطوى جميع العقائد والشعائر ويلحق به الأتباع ولا يدعهم شراذم هنا وهناك ويتطلب الايمان التام ولا يكفى بعلامات الموافقة والمجاراة »·

ويقول البروفسور مكملان فى كتابه « افريقيـة تنهـض » Africa Emergent « ان الجانب الاسلامى فى بلاد النيجـر قد أنمى فيه ما يحسب الآن ثقافة مقررة بمعنى الكلمة الصحيح ، وقد تلقت هذه الطوائف حكمة جمة قد يكون القـليل منهـا اليوم هو للحقيق بأن ينسى » ·

وبداية أن كل اعتراف من هذه الاعترافات يسـتتبع وراءه خطة الحذر والحيطة للمستقبل · ولكن المستقبل سيكشف للافريقيين ولا ريب حيلته فى مقاومة هذه الخطط أو محاذرتها واتقاءها من جانبه ·

أما الأمل الذى يتخاذل أمام المسـتعمر البريطانى فى هـذه القارة فهو تاليف دولة شاسعة من ولايات متحدة تتصل كل مجموعة

منها مع المجاميع الأخرى بصلة المحالفة ، وقد شرح صاحبا كتاب « قارة الغد » برامج هذه الولايات · وقالا ان مصلحة الأوربى والأفريقى فيها لا تتعارضان ولا تتناقصان بل تتوازنان ، وان افريقية اما أن تحكم على هذا المثال أو تصير فى نصفها الجنوبى على الأقل·الطنا مدمجا فى الشعوب الشرقية التى تهاجر اليها وأكثرها الهنود · وقد تطمع الشيوعية فى استخلاصها لها من مصير كهذا أو مصير كذاك ·

ويوشك الرأى الغالب على هذه المصنفات أن يتجه الى غاية واحدة : وهى ادخار افريقية لتزويد الأمم الغربية بمواد الغذاء وخامات الصناعة ، ومع بعض الرجاء فى العثور على المعادن والزيوت فى باطن أرضها ، حيث يتيسر تصنيعها الى جانب مناجمها ·

وقليل من الكتاب الغربيين من يطيب له أن ينظر بعينه جميعا مفتوحتين الى الغد الذى لا مهرب منه فى قارة « الغد » كما يسمونها · فمهما يبلغ من نجاح خطط الاستعمار أو التبشير فلن تكون أفريقية فى النهاية لغير الافريقيين ، ومن داخلها سيخرج لهم من ينتزع سيادتها من أيديهم ، ومن يناصبهم العداء لأنهم قد استأثروا دونه زمنا بهذه السيادة ، ولا يسره يومئذ أنهم استعمروه أو بشروه ·

الغــد

والغد غيب مجهول ٠

ولا حاجة بنا الى التنجيم عن حوادثه ، حروفه ، فان باية حال لن تخلو من الحوادث والصروف ولن تخلو حوادثه وحروفه من سلم وحرب ونصر وهريمة ودول تعلو ودول تهبط وعلاقات تتصل وعلاقات تنفصل ، وصداقة تنقلب الى عداوة وعداوة تنقلب الى صداقة ، وتكرار على نسق الماضى وبدع جـديد كأنه من الماضى المتكرر ، فما خلا زمن قط من بدع جديدة ٠

انما نحن آمنون واجهنا الغد المجهول بعدته ، وانما نحن مستعدون له بخير ما نستطيع اذا خرجنا من الماضى الطويل بعبرته الوافية ، وعبرته الوافية أن العقائد أثبت من السياسات وأن الأمم أثبت من الدول ، وأن الجاهل أعدى لأمتــه من أعدى أعـدائها ، وما نكب الاسلام قط من حرب صليبية أو من حرب اســتعمار كما نكب من أبنائه الجهلاء ٠

ولا نرجع الى الألف سنة مضت منذ ابتدات الحروب الصليبية لنرى مصداق هذه العبر واحدة بعد واحدة ٠

كفى أن نرجع الى أول هذا القرن العشرين ولما ينصرم منه غير نصفه أو أكثر من نصفه بسنوات ٠ فقد كانت فى أوله دول

يخشى منها على قارة كاملة ، وكانت فيه دول تشبثت بكل بقعة من بقاع المشرق اقصاه أو أدناه ، وكانت فيه دول تعتزل العالم القديم وتطلب من العالم القـديم أن يعتزلهـا ، فتغيرت المواقف وتغيرت السياسات وتغيرت الدول وتغيرت العلاقات ، وقاتل النـاس فى صفوف ثم قاتلوا فى غير تلك الصفوف ، ولم تتغير معالم الأرض ولكن تغيرت الحدود وتغيرت الدول التى تقوم بين تـلك المعـالم والحدود .

فمهما تكن السياسة فالعقيدة أثبت منها .

ومهما تكن الدولة فالأمة هى الباقية .

ومهما يكن الخطر فالجهل فى كل معترك ومع كل خصم أو منازع هو اخطر الأخطار .

واذا بقى للاسلام ايمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ولا من أقوياء الغد المجهول ، وأخطر من كل خطر أن يتخلف مكان العلم والبصيرة ويتقدم مكان الجهل والغباء .

ومثل من أمثلة الجهل والغباء أن يطـول اللجـاج ويحتـدم الهياج على التحريم والتحليل ، ومحصول ذلك كله أهون من خطر اللجاج وخطر الشقاق والهياج .

ان الجهل الذى يغرى صاحبه بتحريم البرق واتهام العاملين فى الكهرباء بمحالفة الشيطان لهو اخطر على الاسلام من كل حلال وحرام .

ولقد تطول الأقاويل فى حل التماثيل وتحريمها وفيما هو تمثال وليس بصورة أو ما هو صورة وليس تمثال . ولكن التماثيل

والصور على اختلاف أوصافها وتعريفاتها قد وجدت بين أبناء الأديان من المسيحيين واليهود والبراهمة والبوذيين ولم نسمع قط انهم سجدوا لتمثال بطل عظيم أو تعبدوا لضريح نابغ مشهور ، وليست عقيدة المسلم بأضعاف من عقائد الأديان عن مدافعة هذه الأخطار ان خيفت منها الأخطار ، فلا يمتنعن البحث فى الحلال والحرام ولا فى الصحيح والباطل من عقائد المعتقدين ، ولكنه اذا بذل فيه من الجهد فوق حقه ، وأضعاف خطره ، فذلك هو الخطر الأكبر وذلك هو الجهد العقام ، واحتفاظ المسلم بايمانه أمام هذه المحرمات أيسر جدا من احتفاظه بالايمان أمام جاهل يكفر القائلين بدوران الأرض أو تسخير الكهرباء أو الاستماع الى المذياع من غير ذى صوت منظور ، ثم يزعم أنه يفتى بحكم الدين فيصدقه من يجهل ويكفر بالدين من يحمل عليه جريرة فتواه ٠

ولا خطر على المسلمين أوبل من هذا الخطـر ، فاذا اتقوه وعاذوا بالايمان على علم وبصـيرة فلا خطـر عليهم من الدول والسياسات ، ولا من ذوات اليمين ولا من ذوات اليسار ٠

ولا ينسـين المسـلمون أنهم مجموعة من الأمم فى عصر المجموعات وان لم يكن عصر الجامعات كما عرفت قبل هذا القرن العشرين ٠

لا ينسين المسلمون انهم مجموعة من أمم العالم فان العالم لا ينسى هذه الحقيقة ولا يزال يذكرها ويرتب عليها ما يرتبه من الخطط والمواقف بازائها ٠

وعصر المجاميع غير عصر الجامعات ، أو هكذا تتمثل لنـا المجاميع والجامعات باصطلاح الزمن من التقارب بينها فى مادة اللغة العربية ، فالمجموعة قائمة سواء أرادها أصـحابها أو لم يريدوها ، والجامعة لا تقوم الا اذا أريدت لغرض مقصود ، وغالبا

ما يكون هذا الغرض وحدة فى الحكم أو فى السياسة أو فى مشروع من مشروعات المحالفة والمعاهدة ٠٠

والاسلام شاء أو لم يشأ مجموعة من مجاميع الامم الكبرى فى القرن العشرين ، وليست مجاميع الأمم مقصورة على الكتلة الشرقية التى يتزعمها الروس او الكتلة الغربية التى يتزعمها الأمريكيون والانجليز ، ولكنها اكثر من ذلك وأحق أن تعرف جميعا أو يعرف بعضها على سبيل التمثيل ثم يقاس عليه ٠

فالمجموعة الشرقية والمجموعة الغربية معا تتخللهما مجموعه واحدة يمكن أن تسمى بمجموعة الكنيسة الرومانية ، ويظهر موقف المجاميع فى هذا العصر من موقف الكنيسة الرومانية بين الكتلتين ٠

ان الكتلة الغربية يقودها انجيليون ، والكتلة الشرقية يقودها أناس يقضون على الكنيسة الروسية الكبرى ٠ ومن هنا يتميز موقف الكنيسة الرومانية وتحرص على بقاء أتباعها من أمم العالم على حدة فى الشئون الروحية ، ومن هنا ايضا تظهر فى أمريكا الجنوبيه وفى أوربة الوسطى وأوربة الغربية برامج فى السياسة لا تنضوى كل الانضواء الى الكتلتين ولا تنفصل عنهما كل الانفصال ٠

ومجموعة الأمم الاسلامية مقصودة ، ولابد أن تقصد ، بخطة واحدة فى بعض الأحوال ٠

فاذا غفلت عن هذا الأمر الواقع أصابها ما يصيب كل غافل عن الأمر الواقع ، ولكنها لا تتنبه له بداهة لتجتمع على عدوان فى الاستغلال أو على عدوان فى التبشير ، وانما تتنبه له لتدفع العدوان من هذه الجوانب كافة ، وتجعل لها صوتا مسموعا فى كل

سياسة تصاب بها على سوء النية أو حسنها ، وتربأ بنفسها أن تكون بحيث كانت تيم في رأى الشاعر ·

ويقضى الأمر حين تغيب تيم   ولا يستأمرون وهم شهود

ومتى استطاعت هذه المجموعة العالميـة أن تهم فى أمانة « الانسانية » وأن تعطيها من عندها ولا تعيش عالة عليها ، وأن تؤدى رسالتها للحضارة والاسـلام وأن تفرض وجودها على من يهملونها ولا يحسبون حسابها فذلك حق الاسلام منها ، وحقها هى من الاسلام ·

وأمامها على الدوام « ايمان على هدى وبصيرة » ولا يخذلان لمن يقتدى بهذا الامام ·



فهـــرس

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدارالكتب ٤٨٤٠ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3393 — 0

إن العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب فى إبان النشأة والظهور، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين، ولابد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لابد من تفسير لتلك القوة الغالبة. فإن القوة التى تصمد كالقوة التى تغلب فى حاجتهما إلى التفسير، أو لعل القوة التى تصمد أولى بالتفسير من القوة الغالبة، لأنها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة فى معترك الصدام والصراع.

وصمود القوة الإسلامية فى أحوال الضعف عجيب كانتصارها فى أحوال الشدة والسطوة، ولاسيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون.

عباس محمود العقاد

٢٣٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصميم الغلاف أحمد عبدالغفار